الانسان وأبعاده الاجتماعية

ندرة اليازجي

كنت افضل ان يكون موضوع حديثي " اجتماعية الانسان " بدلا من " الانسان وأبعاده الاجتماعية " وتفضيلي هذا يعتمد سببا اصيلا هو ان اجتماعية الانسان جوهر قائم فيه . لذا ، لا يوجد بعد اجتماعي للانسان لان الانسان هو مجتمع موجود بذاته . فالاجتماعية ليست بعدا يضاف الى الانسان او حدا يضاف الى حد آخر .

فالانسان ليس حدا يضاف الى حد آخر ليتصف بالاجتماعية ، انه الاجتماعية ذاتها . ومن هذه المقولة يمكننا ان نتساءل : كيف تكون اجتماعية الانسان ؟

ان سؤالا من هذا النوع يبحث في " كيف " الشيء يعرضنا لبحث الشيء في " كمه " ولو اننا تجردنا من واقعنا وحاولنا تصور الانسان في حالته المجردة او المطلقة لوجدنا بأننا لا نستطيع ان نتصور الفرد المجرد بأي شكل من الاشكال . وكما يقول الكسي كارليل في كتابه " الانسان ذلك المجهول " وهو يبحث موضوع الجسم ، كليته ووحدته ، ان القلب لايوجد على حدة اي بمعزل عن كلية الجسم ، وان الرئتين لا توجدان على حدة ، وان الدماغ لا يوجد بشكل مستقل عن وحدة الجسم . فنحن لا نستطيع ان نتصور قلبا مجردا او دماغا مجردا ، او عضوا مجردا ، لكننا نستطيع ان نتصور عضوا مشخصا ، وقد تعين في وحدة متماسكة تنم عن تفاعل الكثرة في الوحدة .

وبالطريقة ذاتها ، نعجز عن تصور الفرد وهو على حدة ،يحيا في عزلة عن الاخرين ، او يوجد في حالة فردية مطلقة ، ولذا لانستطيع ان نتصور فردا واحدا يحيا وحيدا ان مثل هذا الفرد غير موجود ، لأن قانون الوجود يحتم الكثرة في الوحدة . وان عجزنا عن تصور هذا الفرد، فلأن الانسان لا يتمثل بالفردية . فهو عضو في كيان الانسان ، في كيان الانسانية وفي النتيجة نقول : ان بحثا من هذا النوع لا يسمح لنا ان نطرح قضية اجتماعية الانسان كبعد بل كجوهر فاجتماعية الانسان لا تنتج عن فرديته ، بل هي تعني انسانية الانسان .

ولو اننا حاولنا ان ننظر الى الموضوع من زاوية اخلاقية بحتة لوجدنا ان فردية الانسان تنعدم ، فلو وجد فرد واحد على كوكبنا الارضي هذا ، لما كان هذا الفرد ماهية او جوهر ، ولو تساءلنا كيف يكون هذا الفرد كاذبا ام صادقا ، متكبرا ام متواضعا ، محبا ام كارها ، لعلمنا ان صدقه او كذبه

نتاج علاقة بين الانسان وذاته ، بينه وبين الاخر ، اي الانسان في وجوده الاجتماعي • فانا اكذب مع الاخر واصدق معه ، وهكذا نستنتج ان الاخلاق ذاتها لا توجد ، ولا تتحقق ، الا على الصعيد الاجتماعي ، ولا تكون بعدا من ابعاد الفردية ، بل تكون تحقيقا لجوهر • اذن ، فالاخلاق مفهوم اجتماعي ، ولا قيمة للانسان الا بوجوده مع الاخر ، وليس هذا الوجود الا تحقيقا لجوهره الانساني بماهيته الانسانية • فحقيقة الانسان تتمثل فى اجتماعيته ، التي هي امتداد الانسان في الاخر وتعمقه في ذاته •

ولو سألنا : ماذا تعني كلمة " الاخر " هل يمكننا ان نقول بأن الاخر هو امتداد الانسان في جوهره الاجتماعي ، وشرط تحقيق اجتماعيته ؟ وهل الاخر هو هذا البعد الذي نتحدث عنه ، وهو البعد الاجتماعي للانسان ؟

أعتقد ان مثل هذا البعد لا يتعارض مع اجتماعية الانسان في هذا المجال فقط • ونفضل عدم تعميمه لكي لا نقع في حقل التناقض والتعارض • فاذا كان الاخر هو البعد الاجتماعي ، فلأنه الوجه الاخر الذي يعبر عن الصفة الاجتماعية الكامنة في الانسان ، أليس كل واحد منا " اخر لآخر ؟ واذا كنت قد جعلت من الاخر بعدا اجتماعيا فلأن الانسان يمكنه تحقيق هذا البعد او نفيه • اما اذا كانت اجتماعية الانسان تنبع من انسانيته الحقة ، فان الاخر لا يكون بعدا بقدر ما يكون تحقيقا لوجوده هو ، ذلك ان الوجود لا يتحقق الا في الوحدة المتنوعة والمتكثرة •

اذن ، فاجتماعية الانسان تتعين في نطاق صغير هو الاخر ، اي في البعد الانساني وهو في حالته الاجتماعية الراهنة ، التي تعني القدرة على الامتداد بهذا الاخر • وهذا هو قانون المجتمع الذي يعني بظاهرة المجتمع الا بتحقيقه ، وتتعين هذه الاجتماعية ايضا بماهية الانسان ذاته ، اي بمعرفة معنى وجوده وتحقيق هذا الوجود ، وهذا هو التعين الذي نهدف الى اظهاره والكشف عن مضمونه •

ومن هذه القضية نستنتج ما يلي . . : يوجد الانسان في حالتيه الفردية والاجتماعية • وتكون هذه الفردية انعكاسا لواقع معين ، يتعين في الدائرة الضيقة التي نسميها الذات ، وهي الذات الصغرى التي تعبر تعبيرا مباشرا عن الفردية • اذن ، هنالك الفرد ، وهنالك الانسان - المجتمع • [illegible]

والانسان الفرد يعيش مع الاخرين ولكنه لا يحيا معهم ، انه يشاركهم امورا كثيرة لكنه لا يحياها ، فالفردية الاجتماعية ، او الانسان الفرد ، ظاهرة مقلقة وخطيرة في الوقت ذاته ، فهي تعبر عن وجود الذات الصغرى التي تتغلغل في الانسان وتتعمق فيه فتجعل منه انانيا وذاتيا • فالانا الصغرى ، وهي تعبير عن الذات الصغرى ، تؤدي الى القوقعة ضمن فردية قاتلة ، وتكون هذه الفردية الاجتماعية بعدا للانسان في اجتماعيته ، لكنها تكون في الوقت ذاته اجتماعية كاذبة •

اذن ، هنالك في الانسان ذات صغرى وذات كبرى ، والصغرى ، منها تشير الى ارتداد الى ظلمات الانا ، المغلقة على ذاتها ، الكثيفة ، والتي لا تخرج من

توقعتها الا لتكسب شيئا لذاتها ، وان هيخرجت فلكي تعيش،ويكون هذا الخروج مظهرا كاذبا للاجتماعية فكيف نستطيع تصور هذه الذات الصغرى ، اي الانا ؟ اننا نتمثلها بالانانية • والانانية هذه تتعين في ظاهرات الفردية الاجتماعية كلها ، نذكر منها : الكبرياء ، الطمع ، الاستغلال ، الاستثمار ، الطموح الكاذب ، الطبقة ، الطائفية ، والصراع الخ • واذا تساءلنا عن المعنى الذي يقع الى ما وراءهذه الظاهرات الناتجة عن الفردية الاجتماعية ، لقلنا بأنها تعبير عن امتداد الانسان بالاخر اوانعكاسه فيه بشكل سلبي كاذب او مقلوب ، فالمتكبر يعتمد بعدا اجتماعيا هو الاخر، ليتكبر عليه ، والطامع يعتمد بعدا اجتماعياهو الاخر ، ليطمع به ، والمستغل يعتمد بعدا اجتماعيا هو الاخر ، ليطمح الى اذلاله واستعباده ، وهكذاتكون الفردية الاجتماعية بعدا اجتماعيا للانسان لكنها بعد اجتماعي كاذب •

أما الذات الكبرى ، فانها تجابه الذات الصغرى ، وتعبر عن الحقيقة الكامنة في اعماق الانسان ان ذات الانسان الكبرى هي صورة الانسان الحقة ، هي الانا الحقيقية ومن هذه الانا تشتق صفة الانانة التي تقابل صفة الانانية التي تشتق من الانا بمعنى الذات الصغرى والانانة تشير الى فهم الانسان لذاته ،وتحقيق هذه الذات ، ولما كانت هذه الذات ، او هذه الانا ، لا تتحقق الا في المجتمع ، فانها تمتد في الاخرين امتدادا صحيحا ، وهكذا تكون تعبيرا صريحا لحقيقة الوجود الانساني والاجتماعية الانسانية وعلى نقيض الانانية ، اي الذات الصغرى،تكون ظاهرة الانانة تشخيصا لحقيقة الانسان •واذا كانت الكبرياء ظاهرة الانانية ، كان التواضع ظاهرة الانانة ، وبالتالي كانت المحبة والخدمة وعدم استغلال الاخر وعدم اذلاله ظاهرات حقة لمفهوم الاجتماعية الصحيحة ، فالمتواضع يعتمد ابعدا اجتماعيا هو الاخر ، ليحيا معه بسلام ومحبة والمحب يعتمد بعدا اجتماعيا هو الاخر ، ليخدمه وليينفي كل استغلال واستثمار واستعباد وصراع وهكذا تتحول المفاهيم والقيم ، وتظهر محبة الانسان الحقة في اجتماعيته الحقة •

وفي هذه العلاقة بين الانا والانانة ، ومن هذا العمق الصميمي في اجتماعية الانسان ، نتطرق الى حقيقة جديرة بالتقدير والبحث ، هي حقيقة الحقيقة السامية •

وعندئذ اتساءل [illegible]علاقتي بالحقيقة السامية اي بالكل الشامل ؟وكيف اعبر عن هذه العلاقة في وجودي الانساني على هذا الكوكب ؟

لواستعرضنا منظومة المبادىء الاولية المكتوبة في كيان الانسان بشكل اوامر خلقية ، لوجدناها تتجه بكليتها الى الاخر فالمبادىء الاولية التي جعل منها الانسان مقياسا او معيارالسلوكه ، ولعمق انسانيته ، هي تلك المبادئ التي تشير الى علاقة وثيقة بالاخر فاذا كانت هذه الاوامر قد نهت عن الكذب والسرقة والقتل والكبريا والنميمة والغيبة وشهادة الزور الى اخره ، وامرت بالصدق والامانة والتواضع والشهادة الحقة الخ ، فلان هذه الاوامر ، وهي مبادىء بدائية وضعت للعاديين من بني البشر ليشقوا لأنفسهم طريقا في خضم هذا الوجود الرائع والمريع ، تتجه الى الاخر، واذا

كانت هذه الاوامر قد صدرت عن ارادة الانسان في الحياة ، وطالبت الانسان بأن يحقق كيانه من خلالها فلأن تحقيق الحقيقة السامية ، بدرجات السلوك البدائية ، يكون من خلالها . ولذا تتجه هذه المبادىء الامرة الى الشمول والكل في حال تحقيق الانسان لها . واذا كانت هذه الاوامر والنواهي تجعل مني كائنا آدميا حقا في حال تحقيقها ، فلأني انسان أحقق ذاتي من خلالها.

هكذا يكون تحقيق المطلق ، انه تحقيق يتم من خلال ابعاد ثلاثة : الحقيقة السامية ،والانسان الاخر ، اي الانسانية وانا والاخر، فكل فعل اقوم به ، وكل سلوك أتصف به ،وكل فكرة تراودني ، تتخذ لها ابعادا ثلاثة هي آنا والكل والاخر . فأنا لا اسيء الى المطلق والى نفسي والى الانسانية كلها الا باساءتي الى الاخر . فالفعل الواحد يتجه الى ذاتي ، كذات صغرى، ان كان هذا الفعل شرا ويتجه الى الحقيقة السامية ، كذات كبرى ، والى الاخر ، وبهذا اكون قد اسأت الى نفسي والى الحقيقة السامية والى الاخر والى الانسانية قاطبة . والفعل الواحد يتوجه الى ذاتي بمعنى الانا الانانة ، ان كان هذا الفعل خيرا ويتجه الى الحقيقة السامية ، كذات كبرى تحققت بذاتي ، والى الاخر ومع هذا كله ، نشاهد مركزية الانا فالامتدادان الاخران ، الحقيقة السامية والاخر ، لا يتحققان الا بتحقيق مركزيتي هذه ، ذلك ان الاخر والمطلق موجودان في ، ولذا فاني اسيء الى نفسي فقط ان انا أسأت الى الاخر والى الحقيقة السامية ، واحسن الى نفسي فقط ان أنا احسنت الى الاخر والى الحقيقة السامية . فانا الذي احمل الكون والوجود . الحقيقة السامية والاخر في . وهكذا تجتمع القوى الكونية كلها ، الكامنة والفاعلة ، في كياني ، وهكذا تكون اجتماعيتي مركزية وجودي .

لا شك ان تحقيق هذه الاجتماعية يتطلب مجالا او جوا تعمل فيه . وهذا المجال هو ما ندعوه الاخر والحقيقة السامية والمجتمع . فالمجتمع ليس بعدا بقدر ما هو حقل للتطبيق ، فلو كان بعدا لكان شيئا اخر يتميز قليلا او كثيرا ، لكنه واقع الاجتماعية .فالانسان لا يكون صالحا الا في المجتمع ، وهو حقل التطبيق . ولا يكون سيئا الا في المجتمع ، وللسبب ذاته اقول : باننا لا نستطيع ان نتصور الفرد ذلك ان الفرد غيرموجود. اما المجتمع فهو موجود . والانسان مجتمع بكامله . واذا شئنا ان نذكر شيئا عن ابعاد اجتماعية الانسان لذكرنا المفاهيم الاقتصادية والسياسية والاخلاقية ، وهذه كلها تسميات لحقيقة الانسان الاجتماعية والجوهرية . فمتى ذكرت كلمة انسان ذكر معها المجتمع ، ومتى ذكرت كلمة الفرد ذكرت معها كلمة موت الانسان وفنائه .

أين أطبق مبادئي ؟ وكيف يكون لمبادئي معنى ؟

لا تستقيم مبادئي الا في المجتمع ، ولا تعني حياتي شيئا الا في المجتمع . فالمجتمع او الاخر ، هو تحقيق الانسان لذاته ، وللانسانية قاطبة . فان أحببت الاخر فلأني أحب انسانيتي ، لكن هذه المحبة لا تتم بدون الاخر ، اذن ، ليس ثمة تحقيق الا بهذا

الاخر • ولما كان الاخر هو آنـــا نفسي بصورة اخرى، بانعكاس الاخر ، فإن اجتماعيتي تتحقق في ان ارى نفسي في الاخر ، وان احقق هــذا الاخر في نفسي، ولما كانت مركزيتي قائمة ، فان تحقيق الوجود كلــه والانسانية كلها والحقيقة السامية كلها يتم في نفسي ، في مركزيــة وجودي ، وهذه المركزية قابلــة للتحول ، الى الذات الصغــرى، ، الى الانانية او الى الانانة، الذات الكبرى • لذا كان التحول الاول تحقيقا للفردية وكان التحــول الثاني تحقيقا للانانية والانسانية ولما كانت هذه الانسانية لاتتحقق الا في بيئة او مجال ، هو الاخر ، المجتمع ، كانت انسانيتي هـــي اجتماعيتي ذاتها •

ان نظرة نلقيها على كتب علم الاجتماع نتفحص ما جاء فيها ، تجعلنا ندرك تفاهة ما جاءت بــه بعض النظريات التي طرحت مسألة اجتماعية الانسان على بساط البحث فقد علمتنا هذه النظريات ان الانسان حيوان اجتماعي ، او انــه اجتماعي بطبعه ، اما ان يكــون الانسان حيوانا اجتماعيا فأمــر مردود ومرفوض ، فكيف يســتطيع الانسان ان يحاكي او يتبنـــى مجتمعية الحيوان ؟ وهل يكتســب الانسان اجتماعيته من مجتمعيــة الحيوان ؟ وهل يبني مجتمعه علــى غرار التجمع الحيواني ؟ مسألــة تستحق البحث والتدقيق •

نبدأ بحث هذه الفكرة فـــي طرح السؤال التالي : هل يعــرف الحيوان الاجتماعية ؟

لنجيب على سؤال من هذا النــوع يجدر بنا ان نفرق بين كلمتين هنا التجمع والاجتماع ، ففي رأيي ان التجمع هو زيادة كم الى كــم ، واضافة واحد الى واحد ، وان الاجتماع هو زيادة كيف الى كيف ، فالحيوانية تجمع لأن الكم يضــاف الى الكم ، الواحد يضاف الــى الواحد ، والانسانية اجتماع لأن الكم واحد هو الانسان والاخر هــو الكيف الذي يضاف الى الكم• ففــي الانسانية نجد الكم والكيف ، وفي الحيوانية نجد الكم فقط، وفـــي هذا المجال نسأل : ماذا تعنـــي اضافة الكم الى الكم واضافة الكيف الى الكم - الكيف •

عندما يجتمع الحيــوان بالحيوان يعمل على تحقيق ذاته ، انانيته ، لا اكثر ولا اقل •

فالحيوان لا يجتمع الا بنوعه ، وبطبيعته يرفض الاجتماع بالنــوع الاخر • فتجمع الحيوان يعنــي ، باديء ذي بدء ، اضافة حيوان الى حيوان من نوع واحد ، وزيادة كــم هذ النوع ، و عندما يجتمــع الانسان بالانسان يعمل على تحقيــق انانته • لذا كانت اجتماعيــة الانسان تحقيقا لغاية نبيلة• وها نحن نعود مرة اخرى لنضع المسألة بالشكل الثاني / ان تجمع الحيوان وهو اضافة كم الى كم ، لا يشيــر الى تحقيق غاية •فالحيوانــات لا تتجمع لأنها تريد ان تنشيء حضارة او تحقق غاية معينة • لذا كــان اجتماعها تجمعا • فاضافة حيوا ن الى حيوان لا ينشيء زيادة فــي الكيف ، واعني ان هذه الاضافــة لا تؤدي الى زيادة توتر في فاعلية العقل والى زيادة النشــاط الحضاري الانساني والى تقدم الوعي والمعرفة ، والابداع ، لذا ، نرى ان عقول الناس تكمل بعضهــا ، وزيادة البشرية تؤدي الى كيف ، الى زيادة التحريض العقلي دومــا وابدا • اما زيادة عدد الفهــود والفيلة الى مالانهاية ، فــلا ينشيء الا زيادة في الكم •

في حديثي هذا ، ذكرت كلمة " تحقيق " مرات عديدة ، ولقد ركزت على هذه الكلمة اعتقادا مني بأن التحقيق هو الغاية التي تنشدها كلمقولة او منظومة في هذا الكون ، فالكون ، والوجود بالقوة ، والعطالة لا تظل على حالها بل تتحول الى وجودبالفعل الى حركة وفاعلية •

ان اجتماعية الانسان قدرة فاعلة باتجاه تحقيق الانسانية والكل الشامل الكامنين فياعماقه ومع ذلك ، نتساءل اذا كان الانسان يحقق الاجتماعية •

الانسان المعاصر لا يحقق هذه الاجتماعية الا بظاهرها ، الامر الذي جعله يقع ضحية التجمع ، فمؤسساتنا كلها ، او معظمها ، اماكن للتجمع وليس للاجتماع ،ولذا نرى الانسان يساق وراء التجمع ، فالمقهى مكان للتجمع ، والنادي مكان للتجمع ، والمدرسة مكان للتجمع ، والعائلة ، او الزيادة العائلية مكان للتجمع ، والطائفية مكان للتجمع ، والطبيقة تجمع الخ في هذه الاماكن ، وفي اماكن اخرى نرى الفرد يضاف الى الفرد ، فلا امتداد هناك ولا تحقيق ، وهكذا نقضي على الاجتماعية باحلال التجمع محلها • فالتجمع مشكلة خطيرة تهدد انسانية الانسان • وتبدو هذه الخطورة بشكلين :

١ ـ محاولة الفرد لأن يجد نفسه التي اضاعها في المجتمع ، الامر الذي يدعوه الى اقامة تشكلات كاذبة ، وفي هذه التشكلات والمؤسسات يعتقد بانه قد وجد نفسه •

وفي هذه الحال تتشكل فيه الفردية التجمعية • ومن هذه الفردية التجمعية تنشأ امراض المجتمع كلها ، ونذكر منها الطبقية والعائلية وانواع التجمعات الاخرى التي يخلقها الانسان الاناني ليسوغ واقعه الاليم •

٢ ـ يزداد ضياع الانسان في محاولته الكاذبة هذه • وفي ضياعه يفقد الغاية التي من أجلها وجد ، وبالتالي يفقد انسانيته ، وعندئذ ، يتصف الانسان بفردية او بغريزة القطيع ، فهو ينتمي الى مؤسسة او طائفة ، او عائلة ، او اي تجمع كاذب اخر لأنه لا يجد حقيقته ، فلو وجدها لانتمى الى الانسانية كلها ، وفي حالته هذه ، يبحث عن ذوات تجمعية اخرى تشاركه ضياعه هذا ، فيجد نفسه اخيرا ضمن تجمع كاذب يدفعه الى التنكر له في نهاية المطاف ، وذلك عندما يكتشف عبثه ، وعندئذ يصبغ القيمة الاجتماعية الحقة بالصبغة التجمعية ، فينكر قيمة وجود الانسان واجتماعيته كلها • ويعود مرة اخرى الى التوقع والفردية ـ هي فردية تجمعية ـ على الرغم من انه موجود مع الاخرين الذين شاركوه فرديته ، ولقد دعوت هذه الحالة بغريزة القطيع لأنها شبيهة بتجمع الحيوان فالاسد يضاف الى الاسد والثعلب يضاف الى الثعلب ، والبقرة تضاف الى البقرة ، وكم يدهشني ان لا اجد فرقا بين التجمع الحيواني المذكور وبين التجمع الطائفي او الطبقي او العائلي ، ففي الحالة الحيوانية الاولى يضاف كم الى كم وفي الحالة البشرية الثانية يضاف كم الى كم •

هكذا نلمس خطورة التجمع البشري الذي يحقق الانسان الفرد وينفي الانسان الاجتماعي ؛

الانسان المعاصر يعاني من نقص في اجتماعيته ومن نقص آخر في تحقيقها وتطبيقها • وقد

ساعدته بعض النظريات الاجتماعية الكاذبة في زيادة هذه العائلة .

والحق يقال ان هذه النظريات خلقت فيه نزعة التجمع الحيواني، فما هو واقع هذه النظريات ؟

أخطأت هذه النظريات لانها شبهت اجتماعية الانسان بتجمع الحيوان ، ولهذا السبب كانت هذه النظريات شبيهة بالتبلور الكاذب . ثمة حجارة شبيهة بظاهرة الحجاره الكريمة ولكنها لا تمت الى حقيقتها بصلة . وهذا الشبه الظاهري الذي يكسب الحجارة مظهرا خارجيا يماثل الحجارة الكريمة هو ما ندعوه بالتبلور الكاذب .

ولما كانت هذه النظريات اساءت فهم الجوهر الانساني وصبغته بالصبغة الحيوانية من حيث التجمع المعيشي فقط ، فانها أدت الى اقامة مؤسسات اجتماعية كاذبة . ولما كانت هذه النظريات تلعب دورا في الوسط العالمي المعاصر ، وينادي بعضها بعالمية متبلورة كاذبة ، فان التجمع الانساني يقود الانسان الى حافة الهاوية ، واذا كنا قادرين على التمييز الدقيق بين التجمع والاجتماع ، فلسوف نكون قادرين ايضا على التمييز بين النظريات الاجتماعية الكاذبة ، وهي تجمعية التي تتصف بالتبلور الكاذب وبين النظريات الاجتماعية التي تتصف بالتبلور الصحيح ، وتكون النظريات التي تجعل من الانسانية تجمعا ، نظريات كاذبة مهما تنوعت هذه النظريات في ابعادها الاقتصادية والسياسية والدينية والاخلاقية والاجتماعية .

يكتمل موضوعنا هذا ونحن نتحدث في تجمعية الوجود المادي، وتكتمل الصورة عندما نجد في الوجود المادي الغاية التي ينشدها هذا الوجود ، وكما تعلمنا العلوم الفيزيقية ،نعلم ان المادة قد مرت ، وهي تتشكل ، في امراحل نعددها : مرحلة اللاتمايز ، مرحلة التمايز ، ، مرحلة التكاثر ، ومرحلة التعدد والتنوع . ففي المرحلة الاولى وهي بدء الوجود الارضي المادي ، وجدت حالة اللاتمايز ، كان الكل يتألف من دقائق لطيفة جدا ، لا تخضع للقياس ولا تتعين ، ويقول علماء افذاذ ان المقاييس والمعايير التي نعتمدها لاتفيدنا بشيء في قياس تلك الدقائق، ولقد دعيت دقائق لانها اصغر بكثير من الذرات والجزئيات - انها كانت عناصر مكونة ، كانت مرحلة اللاتمايز متجانسة ، تعرف التناسق والانسجام وفي المرحلة الثانية وجدت حالة التمايز ، فقد بدأ التمايز يتشكل الجزيئات وتلاها الذرات ، فالذرات الكبرى ، فالخلايا ، فالمتعضيات ، وفي المرحلة الثالثة تكاثرت التجمعات ليسير كل تجمع الى نوعه ، الى مرحلة التعدد والتنوع .

ولو سألنا : ما الذي دفع بحالة اللاتمايز الى تشكيل الحالات الاخرى ؟ لاجبنا : ان القوة الخفية الكامنة في تلك الحالة الاولى هي التي ادت الى مثل هذا التشكل، فهل كان هذا التشكل تجمعيا ام اجتماعيا ؟ لقد كان تجمعيا . كانت قدرة كل جزيء او ذرة اوخلية بعد تشكلها ، تعمل على مد نصف قطرها الى الجزيء الاخر او الذرة الاخرى او الخلية الاخرى ، وبهذا بدأ التكون ، بفعل القدرة الكامنة التجمعية للمادة الاولى.

يشير التنوع الى تجمع .

وهذا ما نجده حقا في الانواع العديدة التي انبثقت من حالة اللاتمايز الاولى . فقد انبثقت من تلك الحالة الاولى المنسجمة والمتناسقة الحيوانات على انواعها ، والطيور على انواعها ، والنباتات على انواعها ، ومن يتعمق كثيرا يجد ان الحياة هي جوهر الكل واساس التشكلات . وليست الحياة الا تلك الحالة الاولى التي اطلقنا عليها اسم اللاتمايز ، كانت وحده متماسكة تحولت الى كثرة متنوعة بفعل التجمع .

لذا نقول ان الكائنات الدنيا ، التي تقع دون طبقة الانسان المفكرة ، تعرف التجمع . فالحياة لم تكتمل فيها كما اكتملت في الانسان . ولذا نقول بأن الوعي فيها ضئيل جدا .

وللسبب ذاته نقول بأن الحيوانات والنباتات لا تصل مرحلة الاجتماع لأنها كانت واحدة في جوهرها واساسها ثم تمايزت الى انواع عديدة ، فالنوع او الجنس منها لا يعرف الا الكثرة ضمن النوع ، وهذا هو الكم المضاف .

اما في حالة الانسان ، فلن وجوده يشير الى معارضة حالة المادة ، وبعكس حالة اللاتمايز الاولى في المادة فقد عرف الجنس البشري حالة التمايز ، اذن ، فحالة التمايز كانت حالة الانسان الاولية ، فقد وجدت انواع الانسان فماذا يترتب على الانسان ؟ يترتب على الانسان ان يعود الى حالة اللاتمايز الاولى والى الانسجام والتواقق والتناسق والوحدة ، ووسيلته الوحيدة للعودة الى وحدته الانسانية ، اي تحقيق هذه الوحدة الجوهرية ، هي الوعي الذي ينقص الحيوان ، لذا كان الانسان اجتماعيا بفضل وعيه ومحبته وكان الحيوان تجمعيا لضآلة هذا الوعي والمحبة .

واذا شئنا ان نذهب مذهب الماديين ونربط بين حالتي المادة والانسان ، وجعلنا التطور حلقة واحدة لاحلقتين ، واعني تطور الانسان في الطبيعة ، قلنا ما يلي : حالة اللاتمايز وصلت في تطورها ونموها الى حالة التمايز والتنوع والكثرة ، الامر الذي لا يقبل العكس ، وحالة الانسان انطلقت من حالة التمايز والتنوع والكثرة . لذا وجد الجنس البشري متنوعا ، والنتيجة هي ان واجب الانسان يقضي بان يعود الى انسجامه الاول ، وهذا لا يتم الا بالوعي والمحبة . وفي هذا الصدد نقول ان المادة تنوعت ، ولن تلتقي في تنوعها لانها لاتعرف الاجتماعية ، واذا التقت ففي الانسان فقط ، وان الانسان تنوع ولكنه يلتقي في تنوعه لانه يعرف الاجتماعية . ولذا كان التطور بعد ظهور الانسان اخلاقيا وعقليا وروحيا . فالاجتماعية هي تحقيق هذه القيم ، وننتهي الى القول بان الكل الواحد يدخل الوجود ليتكثر ويتنوع ومن ثم ليتجمع في مظاهر الوجود الحيوانية والنباتية والمادية الاخرى ، ولا يعود الى وحدته الا في الانسان ، فالحياة واحدة في الكل ، لكنها تجمعية في المادة واجتماعية في الانسان .

اذن فاجتماعية الانسان ، من خلال وعيه ومحبته ، هي التي تؤدي به الى تحقيق انسانيته والكل الشامل معا . فاجتماعية الانسان هي الوعي والمحبة .

يا حلوة الثغر

زكي قنصل

لم يبق غيرك ينبوعا لالهامي غلواء لا تضحكي من دمعي الهامي
روحي فدى ثغرك المعسول ما رقصت الا عليه اهازيجي واحلامي
لكم ترشفت في الاوهام خمرته وكم سكرت وكم اسكرت اوهامي
الله يشهد ما وشيت قافية الا رآيتك تختالين قدامي
جنحت باسمك انغامي وقلت لها طيري ، فصفقت الدنيا لانغامي
وزنت باسمك شعري فازدهى طربا وطاف يشغل احبابي واخصامي
وجئت باسمك باب الوحي اطرقه فقاد جبريل بين الشهب اقدامي
غلواء يا ملتقى وجدي وعاطفتي ويا محجة آمالي و آلامي
لا تتركيني ظمآنا الى شفة نشوى تشارك في تقصير آيامي
ماقيمة الكرم .. ماجدواه ، مايده ان لم يوفر مجانيه لكرام ؟
هل تذكرين على الفردوس سهرتنا في غفلة من اذى واش ونمام
طرنا اليه وكان الوجد ثالثنا ضيفا توسد جرحي قلبنا الدامي
يلفنا الليل في اعطاف بردته ظمآى تضن بسقياها على ظام
آخذت كفك في كفي اقبلها وكدت آكلها من شوقي الظامي
وانشقت الارض عن ابليس يهمس في اذني ويضحك من خوفي واحجامي
يقول هذي مجاني الحسن دانية فاقطف وسبح باحساني وانعامي
واوشك الشاعر القديس يتبعه لولا عتاب ثنائي بعد اقدام

يا شاعر الروح اخشى ان تكون يدي … في جارح الشوك لا في النرجس النامي
خيبت ظني فهل تحبيه ثانية … ياليتني لم اؤل في ليل اوهامي
احببت روحك لم يعلق بها وضر … فلن اشوه هذا الحب بالذام
احببت شعرك ايمانا و عاطفة … فكيف امسخه اضغاث أحلام ؟
وقلت اهواك يا غلواء بلبلة … فهل يهيض جناحي سهمك الرامي
وقلت اهواك يا غلواء زنبقة … فكيف تطرح في الاوحال اكمامي
يا شاعر الروح مالي عنك مصطبر … وان تغامز عذالي ولوامي
لكن خلقي من الزلات يعصمني … الا يقيك المهاوي خلقك السامي ؟

اخفيت وجهي وذابت مهجتي خجلا … وانهار ما كان من نقضي وابرامي
ورن صوتك كالتسبيح في اذني … يمحو برأفته في الحب اجرامي
فاسترجع القلب ما ضيعت من أمل … وطهرت دمعة التفكير آثامي

ياحلوة الثغر يسبيني بضحكته … لولاك ما خفقت في الشهب اعلامي
لم يبق غيرك في دنياي انشده … شعري ، وتعنيه افراحي واسقامي
كرمى لعينيك ما لاقيت من عنت … وما تحملت من كيد وارغام
هيهات تعظم في عيني تضحية … ما دام هذا المحيا نبع الهامي

أساليب المعالجة التقنية في العمل القصصي والروائي

صادق عبدالرحيم

من المتعارف عليه ، ان لم يكن من المسلم به ، ان القيم التي تهمنا ، والتي تكون بذلك قابلة للمعالجة التقنية في القصة يمكن ان تقسم ، عموما ، الى ثلاثة انواع :

(١) ـ فكرية او ذهنية : فنحن نمتلك ـ او يمكن ان نصبح كذلك ، فضولا فكريا قويا حول " الحقائق" والفهم الحقيقي والاسباب الحقيقية والجذور الحقيقية والدوافع الحقيقية او حقيقة الحياة نفسها .

(٢) نوعية (كيفية) : فنحن نمتلك ـ او يمكن ان نصبح كذلك ـ رغبة قوية في رؤية نموذج او شكل ما وهو يتكامل ، او ان نمر بتجربة تطوير جديد لخاصية ما . يمكننا ان نسمي هذا الفرع جماليا . "اذا لم يفترض ذلك ان الشكل الادبي الذي يعتمد هذا الاهتمام بالضرورة ذو قيمة جمالية آكبر من الاعمال التي تعتمد اهتمامات اخرى .

(٣) :عملية : فنحن نمتلك ـ او يمكن ان نصبح كذلك رغبة قوية في نجاح او اخفاق اولئك الذين نحب او نكره ، الذين نحترم او نحتقر او يمكن ان ندفع باتجاه تمني التغيير او خشيته ، في نوعية شخص ما ، ويمكننا ان نسمي هذا النوع " انسانيا " اذا لم يتضمن ذلك ان النوعين (١) ،(٢) اقل من انسانيين . وقد يكون التمني او الخشية لتغيير فكري في الشخصية او لتغيير في طالعها ، وقد يجد احدنا هذا الجانب العملي حتى في اكثر القصص والروايات صرامة في فكريتها ، حتى لتبدو وكأنها تقع

ضمن النوع الاول كليا . ويمكن لرغبتنا ،ثانيا انتكون باتجاه تعبير فينوعية الشخصية . وقد نجد هذا الجانب العملي حتى في اكثر القصص والروايات " الجمالية نقاء في حساسيتها حتى لتبدو وكأنها تقع ضمنالنوع الثاني كليا .

وأخيرا فان رغبتنا قد تكون في احداث تغيير اخلاقي في الشخصية ، او في نصيبها - اي ، اننا يمكن ان ندفع ، بكل ما اوتينا به من رغبات قوية عاصفة واحاسيس مختزنة دافقة ،باتجاه التمني او خشية خيارات اخلاقية معينة ونتائجها .

الاهتمامات الفكرية :

اننا نريد باستمرارمعرفة حقيقة قضية ما ،سواء في الظروف المادية البسيطة ،كما فيمعظم روايات التشويق ،ام في الحقائق السيكولوجية والفلسفية التي تفسر الظروف الخارجية . وحتى فيما يسمى بالاعمال الخالية من الحبكة ننجذب الىامام برغبة دافقة لاكتشاف حقيقة عالمومعادل العمل القصصي او الروائي الموضوعي .

وفيالاعمال التي تلقي بثقلها على هذا الاهتمام ،نعرف ان العمل القصصي او الروائي قد اكتمل عندما نرى الصورة كاملة ،في " سيد هارتا " لهرمان هسه مثلا ، يكمن اهتمامنا الاساسي في بحث " سيد هارتا " عن الحقيقة حول : كيف ينبغي للمرء ان يعيش ؟ فاذا لم نكن نعتبر مسألة : كيف ينبغي ان يعيش الانسان ، او لم نكن نعتبر روية الكاتب في هذه المسألة ،قادرة على ان تكون ذات قيمة ،فاننا لن نستطيع ابدا ان نهتم كثيرا بهذه القصة او تلك الرواية ، رغم اننا قد نستمتع ببعض ما تقدمه من متع ثانوية .

وفي العديد من القصص والروايات الحديثة الجادة نبحث عن اجابة عن هذا السوّال : " ما الذي تعنيه هذه الحيوات ؟ ، وفي البعض الاخر نبحث عنالنتائج المكتملة للموضوعة او الصورة او الرمز..

على اية حال ،يعتمد القليل جدا من الاعمال الخيالية على الرغبة في الكمال الفكري كليا . والاشكال الادبية الخالصة التي تنتمي فعلا الى هذا النوع من التشويق هي المعالجات الفلسفية التي تثير فضولنا حول قضية مهمة والروايات البوليسية الاستنتاجية الخالصة .

الكمال النوعي:

تعتمد معظم الاعمال الخيالية حتى ذلك النوع الذي يبدو ذهنيا او تعليميا ،بمعنى انه مبني على الاهتمامات الفكرية او التأصيلية حسب ، تعتمد فيجانب منها على اهتمامات مختلفة تماما عن الفضولالفكري . انها تجعلنا نتوقالى النوعية ، وبرغم بعض الخصائص التي توفرها بعضالاعمال فغالبا ما تتم مناقشتها بمصطلما فغالبا ما تتم مناقشتها بمصطلحات ذهنية مثل " الحقيقة " و " المعرفة " ولكن من الواضح ان الاشباع الذي نحصل عليه يختلف الى حد ما عنمتعة التعلم.

(آ) السبب - النتيجة :

عندما نشاهد ابتداءسلسلة مسببة ،فاننا نطالب ونرغب باستشراف النتيجة - ونطالب

بطريقة ترتبط بالفضول المجرد بشكل غير مباشر فقط (ايما) تتورط و (تيس) تغوي ،و (هوك) يهرب ،ونحن نطالب بنتائج معينة . (١) .

هذا النوع من النتيجة التي اكدها ارسطو بقوة في مناقشته للحبكة قد خضعت كما رأينا الى الكثير من الاستصغار بل الاحتقار على يد النقاد والروائيين الحديثين ،رمع ذلك فان توقنا الى اشباع السبب هو واحد من اقوى انواع الاهتمامات المتاحة امام الكاتب . فنحن لا نعتقد بأن اسبابا معينة في الحياة تؤدي الى نتائج معينة فقط بل نعتقد بأن هذه الاسباب في الادب يجب ان تفعل ذلك . وتكون النتيجة اننا ،نحن القراء العاديون ، لن نألوا جهدا لمعرفة انكانت حاجتنا قد انجزت ام لا ،حالما يصطادنا كتب يعرف كيف يستخدم هذا الاهتمام .

ان التشويق ،من السبب الى النتيجة ،يرتبط بالطبع ارتباطا وثيقا بالفضول من جانب الاهتمام الذهني . فنحن نعرف ان اي اشباع لتوقعاتنا سيكون مختلفا عنها ونحن متشوقون لمعرفة هذا الاختلاف . ان جميع الاعمال الجيدة تفاجئنا وهي تفعل ذلك بأن تضع امامنا نماذج مقنعة من (السبب ـ النتيجة) ، تلك التي كانت محط استصغار في السابق. اننا نتوقع ان تحدث كارثة بسبب غضب " آخيل " ولكننا لا نتوقع ان يلعب الكرم مع " بريام " دورا ـ حاسما في تلك الكارثة ،وحتى عندما تحدث فانه يمكن ان تعد نتيجة مناسبة لاسباب اخرى تكمن في طبيعة " آخيل " وظروفه .

ومن جانب اخر يمكن خلط هذا الاهتمام بسهولة مع الاهتمامات العملية التي تناولها ادناه ، ولكنه اهتمام نوعي لانه يعمل مستقلا عن اهتمامنا بسعادة الانسان وفي الواقع فانه يمكن له ان يصطرع مع الاهتمامات الاخرى : يرتكب البطل جريمة على سبيل المثال ـ ونتوزع نحن بين تطلعنا الى حدوث النتيجة المناسبة وهي اكتشاف الجريمة ثم العقاب وبين رغبتنا العملية في سعادته .

(ب) التوقعات التقليدية :

ان القارىء المتمرس يعرف ان بداية (سوناتا) تستدعي خاتمة ،وان مرثية تبدأ بالشعر المرسل وحتى في نمط ادبي مراوغ مثل الرواية ،لا يكاد يمتلك اية تقاليد مؤسسة ،يمكن الاستفادة من هذا الاهتمام : معندما ابدأ بشيء أعتبره رواية ، فانني أتوقع ان اواصل قراءة رواية الى النهاية مالم يكن الكاتب قادرا على تغيير فكرتي عما يمكن ان تكون عليه الرواية ، مثل شتيرن . ويبدو اننا قادرون على تقبل اي شيء تقريبا كتقليد ادبي بغض النظر على مدى خطله اساسا . وحتى اكثر السلوكيات غرائبية ، مثل العناية اللفظية و (اليقظة الفنيغانية) فانه يمكن ان تؤدي عملا اساسيا في الاستحواذ على احساسنا بالمكانة الفنية لهذا العمل كشيء متميز عن كل الاعمال الاخرى ومتميز عن الحياة ويمكن للكتاب ان يثيروا دهشتنا ايضا بخرق التقاليد ، ولكن ذلك يحدث فقط عندما تكون التوقعات التقليدية متوفرة ضمن جمهور معين لكي يمكن التلاعب بها . فلو ان كل شخص نبجح بأنه يخرق التقاليد

لما بقي هناك شيء يخرق ،وكلما كانت التقاليد اقل كانت الدهشة اقل ايضا.

(ج) الاشكال التجريدية :

يبدو ان خلف كل تقليد يكمن نظام اكثر عمومية من الرغبات واشباعها مما يخدمه ذلك التقليد اما التوازن والتماثل والذروة والتكرار والتعارض والمقارنة فهي انظمة مستقاة من تجربتنا وهي في الحقيقة مايحاكيه كل تقليد ناجح . كما ان التقليد الذي يظل يبهجنا ، وعندما يفرز الزمن ،اي زمن ،ادواته وطرائقه وظواهره ،فهو تقليد مبني على أنظمة من ردود فعل تكمن في صميم اعماقنا . ونلاحظ ان :
" التقليعات " في الشكل الشعري مثلا ،تجيء وتذهب ،ولكن الوزن والقافية وسواهما من الادوات الموسيقية في الشعر لا يمكن ان تفقد اهميتها . ومع استسلام الشعر ، ومع عدم وجود اتفاق تقليدي من اي نوع حول ماهية الاسلوب النثري السردي الجيد ، فقد اضطر كتاب الاعمال السردية الاكثر طولا على شغل انفسهم بالسعي الدؤوب وراء طرق جديدة لاعطاء جسم للاشكال التجريدية .

(د) الخصائص الموعودة :

اضافة الى الخصائص التي ذكرناها والشائعة في العديد من الاعمال ،يعدنا كل عمل في صفحاته الاولى بالمزيد من خزين الخصائص المميزة المعروضة على تلك الصفحات وسواء كانت تلك الخصائص اسلوبية غريبة ام تألقا رمزيا ام نوعا اصيلا من الحذق ،ام تألقا فريدا ،ام سخرية ،ام غموضا ، ام صورة عن الواقع ،ام عمقا ، ام تصورا مقنعا لشخصية - في جميع هذه الحالات هناك وعد ضمني بوجود المزيد فيما يلي من الصفحات .

ان اهتمامنا بهذه الخصائص قد يكون جامدا ؟ فنحن لا نأمل ان نجد تغييرا في خاصية ما وانما نتقدم ببساطة ساعين وراء المزيد منها نفسها .

ان بعض الاعمال الجيدة يلقي بثقله على هذا النوع من الاهتمام (مقالات مونتين)وتشريح الكآبة لبرتون ، ومجموعات الحوارات والطرائف والقصص والروايات الحديثة ذات الاساليب التجريبية مثل " ملانستا" لغرترود شتاين) وقد اعتمدت القصص والروايات الواقعية والطبيعية في العديد منها ،التي كانت مشهورة يوما وباتت مضجرة الان ، اعتمدت باكثر مما ينبغي على الاغراء المشوق كما كان يسمى غالبا " الحقيقة " وقد افتتن العديد من القراء عندما قرأوا ، اول مرة رواية تعالج بالاسلوب الواضح الجديد آية موضوعة جديدة ، سواء كانت الواقع الاجتماعي للدعارة ام احياء الفقراء ام سوق القمح ام الواقع النفسي لشخص امريكي مضطرب نفسيا - افتتنوا بالاحساس الجديد بالواقع .
دعك عن اغراء الحقائق كمعلومات مجردة ، فلم تكن هناك حاجة الا للقليل من اجل حمل القارئ على اكمال الرواية . ولكن حالما أصبحت هذه الخاصة شائعة اضمحل سحرها . اما الان ومع معرفة معظم الكتاب " التجاريبين " بكيفية تصوير الحقائق المادية ،مثلا ، وبدرجة من الوضوح حرية بأن

تمنحهم شهرة واسعة في فترة ما فلم تعد قادرة على البقاء سوى تلك القصص والروايات التي تقدم اكثر من الحقيقة المادية .

ان الخطر نفسه يهدد الاهتمام بأي " تكتيك " حتى عندما تستخدم الخطوة الاكثر امتاعا في " التكتيك " لتطوير الخاصة نحو الافضل . مثلا، عند متابعة الاستكشافات الرائدة لهنري جيمس فيما يمكن ان يفعله " الانشاء للرواية ، كان من السهل جدا ان نعتقد ان اهتمام القارئ بـ " التكتيك " يمكن ان يعوض تماما عن الاهتمامات الاخرى . بدلا من ان يكون مجرد عامل مساعد في افضل حالاته وتخريبا مدمرا في بعضها .

وقد كتبت بعض القصص والروايات التي تشجع هذا الاهتمام عندما كتب هنري جيمس واحد عشر زميلا له " العائلة كلها : رواية بقلم اثني عشر مؤلفا " ١٩٠٨ كتب كل مؤلف فصلا ، واستخدم في كل فصل وجهة نظر مختلفة لالقاء ضوء مختلف على الاحداث لم يكن باستطاعة اي قارئ ان يقاوم اهتمامه بوجهة النظر اكثر من اهتمامه بما تكشفه تلك " الوجهة " اتساءل ما الذي سيفعله هنري جيمس في فصله " ولكن ، حتى مع كل هذا التشويق ، فان الاهتمام بـ " التكتيك " لوحده ، حري بأن يثبت هشاشته .

الاهتمامات العملية :

لو تأملنا مليا ردود افعالنا على معظم القصص والروايات العظيمة لاكتشفنا باننا نشعر باهتمام قوي بالشخصيات كبشر . نهتم بحسن طالعهم او سوئه . وفي معظم الاعمال ذات الاهمية ندفع باتجاه الاعجاب بشخصية مركزية واحدة في الاقل او احتقارها ،حبها او كرهها . كما ان اهتمامنا بالقراءة من صفحة الى اخرى لا ينفصل عن اندماجنا العاطفي ، وكذلك هو الامر مع احكامنا على الكتاب ككل بعد ادارته في الذهن. اننا نهتم ، ونهتم عميقا براسكولينكوف وايما ،وبالاب غوريو ودوروثي بروك ومهما حدث لهم ، نتمنى لهم كل خير . وصحيح بالطبع ان رغباتنا المتعلقة بمصائر شخصيات خيالية كهذه تتباين بشكل ملحوظ عن رغباتنا في الحياة الحقيقية فقد نقبل بدمار امرئ نحبه في عمل ادبي اذا كان دماره مطلوبا لاشباع اهتمامنا ،وقد نستمتع بمزيج من الامل والخوف قد يكون في الحياة الحقيقية غير محتمل ، كما ان الدمار او الخلاص مستشعر بطريقة مشابهة تماما للمشاعر التي تسببها احداث كهذه في الحياة الحقيقية .

ان اية صفة ، عقلية كانت او فيزيولوجية او اخلاقية ، تجعلني في الحياة الحقيقية احب احدهم او اكرهه ، تفعل الفعل نفسه في القصة او الرواية ، غير ان هناك فرقا كبيرا ، فما دمنا في موقف لا يعيدنا او يؤذينا على يد الشخصية الروائية فان احكامنا تكون محايدة ، وحتى غير مسؤولة بمعنى ما ، ويمكن ان ينجذب اهتمامنا ببساطة ، الى شخصيات قد تكون غير محتملة كمعارف (رفاق) في الحياة الحقيقية . ولكن تظل هناك حقيقة ثابتة وهي ان ما أسميه اهتمامات عملية ، وبالذات الخصائص الاخلاقية التي تفرزها خيارات الشخصيات او كما

يضعها الكاتب مباشرة ، كانت دائما اساسا مهما للشكل الادبي.

ان اهتمامنا بمصير اوديب و " لير " ب " دافيد كوبرفيلد " و"كتتين كومبس " ينبع في جزء منه من قناعاتنا بأنهم أناس جديرون بالاهتمام ، أناس يهمنا مصيرهم ليس فقط لمعناه او نوعيته وانما لأننا نهتم بهم كبشر .

قد يقول " اورتيغا " ان اهتمامات كهذه ليست اساسا ضروريا ببساطة : بل هي شيء غير نقي من اجل جعل التأمل ممكنا ولكنه لا يحمل اية قيمة جمالية وانما قيمته منعكسة او ثانوية فحسب " ، في العديد من اعمال الطراز الاول تقبع هذه الاهتمامات في القلب من تجربتنا ، قد نرفض مباركتها عندما يحاول كاتب ما ان يتلاعب بنا علنا او ابتذالا مع التفضل بشيء من الطيبة او التألق الفكري او الجمال او اللطف .

اننا جميعا نستخدم صفات من " ميلودرامي " ضد اساءات من هذا النوع . ولكن هذا لا يعني ان الاهتمامات الانسانية بذاتها رخيصة ، صحيح ان اندماجنا بمصير راسكولينكوف لا يختلف في نوعه عن الاندماج المطلوب في اكثر الروايات عاطفية . ولكننا في الاعمال العظيمة نسلم عواطفنا لاسباب لاتجعلنا نادمين او عازمين على التراجع بعد ان تنتهي فورة الانفعال .

وقد كان افضل هذه المواقف دائما منظر امرىء طيب يواجه خيارا اخلاقيا مهما . ان تجاهلنا الحالي بعبارات اخلاقية مثل " انسان طيب " و " انسان شرير " يعتبر من سوء حظنا اذا قادنا الى تناسي الدور الذي يلعبه الحكم الاخلاقي في معظم قراءاتنا المهمة . هناك قصة عن محلل نفساني كان ينصت صابرا وبلاتقييم الى مريضة وهو يكشف عن نفسيته الاجرامية - حتى اكتفى المحلل فجأة ، وحينما كان المريض يغادره ، باحساس غريب بالاشمئزاز فعلينا ان نتلافى مصطلحات مثل " اخلاقي " و "طيب" وبرغم " الكورس "المتعاظم ضد النسبية ، ما زال الكثيرون يحاولون - اننا لا نستطيع ان نتلافى الحكم على شخصيات نعرفها كشخصيات محبوبة اخلاقيا اومحتقرة اكثر مما نستطيع ان نتلافى الاحكام على قدراتنا الفكرية : قد نقول لانفسنا اننا لا نلعن الغباء او الفساد ، ولكننا نعتقد مع ذلك بأن المرء ينبغي له الا يكون غبيا او فاسدا . وقد نبرر سلوك الشرير بارجاعه الى بيئته ، ولكن حتى التبرير هو اعتراف بأن هناك شيئا يحتاج الى عذر . في الواقع كان الانحسار في الاحكام الاخلاقية اقل مما يبدو ، بسبب الانعطاف ، في القصة اوالرواية الحديثة ، نحو تسميات جديدة للخير والشر فالادب الحديث في الحقيقة مليء بأشرار " فاضلين " تقليديين ، منجرفين مصيريا بخضوعهم الاعمى لمبادىء غير شائعة ، او تعصبهم للخير الحقيقي ولكن غير التقليدي (المبشرون عند " موم " في قصة " مطر " و " الامريكي الهادىء عند "غرين ") . ولعلنا نجد نموذجا لذلك في " الانسة واتسن في " هكلبري فين " (مارك توين) فالانسة واتسن عقدت عزمها على " العيش هكذا حتى تبلغ مكان الخير " . ومن السهل على الكاتب ان يجعلنا نتفق على ذلك مع "هوك " الذى قال " لم استطع ان

اجد اية فائدة في المضي الى حيث كانت تمضي ،فقررت الا احاول ذلك ولكن قليلين هم الذين ارتكبوا خطأ تصور ان هوك قدتخلى عن الفضيلة بتخليه عن فكرة الانسة واتسون عنها .

ان الكثيرين مما قد يبدو جماليا او فكريا خالصا في الشخصية قد يكون في الواقع بعدا اخلاقيا قوى التأثير رغم ان القارئ والكاتب معا لا يعترفان بذلك ابدا . فقديبدو جيمس جويس لا اخلاقيا بكل وضوح عند مقارنته بديكنز ، فاهتمامات جويس المعلنة كانت دائما بقضايا الحقيقة والجمال ولا تخطر الاحكام الاخلاقية التقليدية في كتبه ابدا اللهم الا سخرية ومع ذلك فان القوة الكبرى في " صورة الفنان شابا " تعتمداساسا على خاصة اخلاقية في اكتشاف " ستيفن" لملكته الفنية وعزمه على المضي وراءها وكان تنكره للاخلاقية التقليدية - رفضه دخول الكهنوت ، رفضه للجماعة ، قراره بأن يكون منفيا في الحقيقة مؤشرا على سمو جمالي اي : اخلاقيا راقيا ، لم يكن لجويس ان يطلق عليه " ولدا طيبا " ، رغم ان جويس الاكبر سنا والاكثر خبرة كان مستعدا فيما بعد لوصف " بلوم " ب " رجل طيب و " رجل كامل " اما بالنسبة لنا فان " ستيفن " ، في جانب منه ،ولد طيب ، كان اصراره على رؤيته حازما ،وكان يمضي نحو فردوس جويس . وقد نتظاهر باننا نقرأ جويس بموضوعية وبلا حيادية ، وبغير اندماج عاطفي في الرواية الفكتورية ، ولكن معظمنا لن يغادر الصفحة الاولى اذا كانت الرواية مجردتصوير للحساسية الجمالية وهي تتلقى الاشراقة الجويسية .

حاشية

---

(١) ايما " رواية لجين اوستن و " تس " رواية لتوماس هاردي ، وهوك هكلبري فين(في رواية لمارك توين .

(٢) تعتمد هذه الدراسة على افكار واطروحات للناقد واين بوث " .

أحاديث تحتفل فجأة

قصة: محمد المنصور الشقحاء

ـ أ ـ

بين مغيب الشمس ومشرقها مسافة في الامكان اجتيازها، هكذا قرر عندها طلب من خدامه أن يقوم بتجهيز حصانه لبدء رحلة قطع هذه المسافة ويتمكن بعدها من الفوز بقلب أجمل فتيان الحي.

مع انبثاق نور الصباح وعلى صوت صياح الديكة وثغاء الضأن نهض نافع من فراشة وتلفع بغترته ثم تفقد مسدسه المشدود الى وسطه وأمام باب الخدر تمطى قليلاً وهويتثاءب ثم انحنى لحمل زوادته.

الطريق طويل، قرر أن تكون البداية المكان الذي تشرق منه الشمس ثم يأخذ في السير معها حتى يعرف أين تختفي ثم رفع عقيرته بالغناء كما هي عادته عندما ينطلق الى الصيد أوفي رحلة طويلة بعيداً عن مضارب الأهل والعشيرة.

لم يكن يدري بهذه الرحلة أحد إذ لم يأمن على سره حتى خادمه عبادة الذي يأتمنه على حياته لم يبح له بوجهته وان همس في إذنه (سوف أجلب طلب أغلى الحلوات) ردد عبادة هذه العبارة بعد ثلاثة أيام من الرحيل وهويداعب وجنتي سمر في الرجم الذي اعتاد سيده الجلوس فيه عندما تثور به الهواجس.

وفي العودة لمح بنت خال سيده أمام القليب تحاول رفع قربتها، اقترب منها وساعدها على حمل قربتها، أحس بأنفاسها تحرق أطرافه وهويثبت رباط القربة على مقدمة رأسها وأخذ يتأملها (حلوة الحلوين) تذكر قول سيده انها هل تكون عفراء هي أغلى الحلوات ربما وأخذ يتأملها وهي متجهة الى مضارب الحي..

ان (أغلى الحلوات) مجهولة بالنسبة لعبادة الذي أخذن يتواردن عليه كثيراً من فتيان الحي في الرجم أوفي المفلى أوأمام القليب يسألونه عن سيده إذا احتار في الإجابة، انها أخذت الأماني والأحلام تجول في داخله وقد غدا ملجأ الجميع. يترقب عودة الغائب فأخذ يشعر بمكانته متذكراً أنه لم يعد الخادم الذي يؤمر فيطاع انما هو الآن الآمر الناهي في حلال سيده وبيته فأخذت أموره تتحسن واحواله تتبدل فقام باستئجار بعض الرعاة لرعي الغنم واستحضر خادماً لعمل القهوة وتلبية طلبات أم سيده العمياء التي لم تشك لحظة في أمانته ووفائه لابنها لمعرفتها ما بينهم من حكايات وقصص.

أخذت عفراء تتردد على الخباء لخدمة عمتها العجوز فلم يهتم أحد بجلوسها الى ساعة متأخرة من الليل وانما لاحظت ذلك صديقتها ميثة فأخذت تشاركها السهر بينما عبادة يتجول بين المضارب أوفي الصحراء، وبعد أن لاحظ الفتاتين أخذ يعود للخباء في أوقات متقدمة محاولاً المشاركة في السمر. نهرته سيدته فأخذ يتلصص من (الشق) وقد اطرب هذا التصرف الفتاتين فكنّ يداعبنه بافشاء سره.

مرت أعوام على نافع الذي أخذت الركبان تتناقل قصة رحيله بشكل مخالف للحقيقة كما منحت المسافر بركات وأعمالاً خارقة للطبيعة أخذ يرويها الشعار ومن يمر بمضارب البادية مما زرع الرعب في قلب عبادة الذي استطاع أن يتخلص من كل تبعية لسيده بعد زواجه من احدى بنات الحي وهويردد في داخله انها (أغلى الحلوات) وفرض على سيدته التي أقعدها المرض الانتقال

الى مسكن أخيها مع ايهام الجميع بأنه سوف يحمي الحلال.

نزح عبادة عن الديار.. رحل مع زوجته وكل ما يمتلكه سيده واختفى عن العيون مختاراً اسماً جديداً وقبيلة جديدة.. انما لم يتمكن أحد من العثور على أثر له رغم المحاولات المضنية وأعلن بين القبائل عن سرقته لحلال سيده وغدره بمن عطف عليه واعتبره من أهل بيته.

* * *

- ب -

مما يتناقله الركبان أنه يوجد رجل صالح في بيت من الشعر النادر يقيم في طرف الصحراء بشكل عجيب من حيث الموقع والرجل الذي كل ما يعرف عنه الناس أنه رجل صالح قرر البقاء بعيداً عن الناس وكان بداية اتصالهم به مرض سرى بين القبائل فجأة فأخذ كل بيت يشد رحاله ويتيه في الصحراء على وجهه خوفاً من العدوى، وحرصاً على أهل بيته من النبذ اذا علمت الجماعة بأنه يوجد بينهم مريض.

احدى هذه الأسر التائهة على وجهها لمحت مع بزوغ الشمس فرساً يركض في وجه الشمس لم يهتم احد [illegible]لك انما كلما تربعت الشمس في كبد السماء وضح موقع الخباء الذي لم يكن به أحد حين اقترابهم وفجأة اذ بالفارس يعود وقد تصبب العرق من الحصان ومنه فرحب به ودعاهم للاستراحة ولكن لظرف المرض امتنع الركب عن الضيافة شارحين الأسباب وهنا أمرهم بالنزول وضرب مخيمهم بجوار مخيمه لأن عنده الدواء الشافي للمرض. وهكذا تكون حي جديد في طرف الصحراء ومن خلال العلاقات المتباينة بين المنازل اعتبر الجميع صالحاً الذي اكتفى بهذا الأسم هو شيخهم بحكم قيامه بمعالجة الجميع وشفاء أبنائهم على يده.. ورغم تساؤلهم عن انتمائه ولماذا هو مقيم لوحده وهل أحد يطالبه بدم أو ثأر أو أن جماعته أهدرت دمه بجرم شنيع انما الأمر الذي لاحظه الجميع أنه قبل بزوغ الشمس يركب فرسه ويأخذ طريقه الى قلب الصحراء ويلمحه في بعض الأحيان الرعيان وهو يعود مسابقاً الريح في سباق أزلي مع شيء مجهول لا يدري الجميع كنهه، فكان سؤال يلوب في الأذهان وفي ليلة عرس تربع القمر في كبد السماء أخذ السمار حول النار يرددون.. الأهازيج ويتبادلون الأحاديث بينما كان عازف الربابة بين لحظة وأخرى يداعب أوتار معبودته فيرتفع صوته متجاوزاً الفضاء في حوار أزلي مع الكون تربع صالح وسط كبار الضيوف أخذ يتلفت متفحصاً الجميع كأنه يبحث عن فقيد ثم لمعت عيناه ببريق عجيب وهو يستمع الى آخر أبيات المغني الذي صمت فجأة وقد انحدرت من مقلتيه دموع أخذ يمسحها بطرف أنامله مدارياً وجهه عن الجميع وهنا ارتفع صوت صالح:

سافر متجهاً الى مشرق الشمس من أجل ان يسابقها ليصل قبلها الى المكان الذي تختفي فيه كل مسار من أجل عيون معشوقته امتطى فرسه مخلفاً وراءه الجميع، اتجه الى الصحراء مخترقاً طرقاً لم يطرقها أحد قبله وفي ثالث يوم بان عليه الارهاق والتعب رغم أن الطعام متوفر والماء كأنه لم يمسه شيء منذ غادر جماعته، الشمس كانت قوية وهجها يثير الدوار والصحراء لا ترحم أحداً خاصة اذا كان وحيداً انما قاومها بارادته في الوصول الى هدفه مهما كانت الصعاب وأخذ شيئاً أسود يقترب من بعيد لا يدري هل كان هذا الشيء متحركاً أم أن فرسه أخذت اليه كل ما في الأمر أن الارهاق أثر عليه فلم يعد يشعر بشيء مما حوله إذ أغمي عليه وأخذت الفرس طريقها الى شيء معلوم وكأنها تستمع الى ارشاداته. كل ما يدرك[illegible] أنه سمع صوت ج[illegible]ة وميز صوت امرأة تردد غريب.. غريب. هذا كل ما يدركه حتى فتح عينيه فلم يجد حوله أحداً انما كان رأسه متوسداً زوادته وفرسه يقف أمامه. أحس بهواء لطيف فأخذ يجيل نظره حوله فاذا به داخل مغارة رطبة هواؤها منعش وأمامه كسر من الخبز ودورق ماء، انما لا يوجد جنس مخلوق. فز من مكانه وأخذ يتجول واذا بصوت امرأة يعبر فراغ المغارة يقول:

- أنت رجل محظوظ.. أنت رجل محظوظ لا تعمل أمراً يفقدك هذه الميزة..

تكرر القول أكثر من مرة انما شعر بأنه انسان جديد لم يعد يتذكر شيئاً من ماضي أيامه سوى أنه قرر معرفة أين تغرب الشمس ومن أين تشرق. وركب فرسه مع الصبح وأخذ طريقه نحو هدفه.

وهنا تقافز الشباب حول النار لاثارة حماس الحضور للمشاركة في الرقص عندما أطل العريس في أبهى حلة فلم يعد أحد يهتم ببقية القصة ونهض صالح يتقدم الجميع مرحباً بالعريس وأخذ سيفه متمايلاً وسط الجميع..

* * *

- ج -

أحس عبادة بالوهن وفتور عام في جسمه زادته وساوس زوجته التي لم تنجب مطالبة بأن يقوما بزيارة الرجل الصالح الذي تناقلت

الركبان علاجه الشافي واتصاله بالجن لفك العين وطلاسم النحس فعزم على الرحيل الى مضاربه لكن الخوف أن يلتقي بأحد هناك من جماعته، كان هاجس يقلقه فلم يفاتح زوجته بذلك لعدم علمها بقيامه بفعلته الشنعاء حيث اوهمها أنه شريك في الأموال وانه يحتفظ بحقوق صاحبه حتى يظهر وأن هجره لجماعته انما هو حتى يتوسط أحياء العرب لعله يصل الى معرفة مصير رفيقه الذي اختفى منذ زمن طويل . .

كل هذه الهواجس كانت حاسراً تدعوه الى التمهل انما رغبته في مولود يحمل اسمه دفعته ذات صباح الى مطالبة الرعيان بالرحيل.

وأقام له سكناً في مكان ناء عن المساكن، وبعد أن أرتاح من السفر وبعد غروب الشمس تلفع بعباءته واتجه الى خيمة الشيخ الذي لم يكن موجوداً كما هي العادة وجلس مع الجالسين يتبادل الحديث معرفاً بنفسه بعد أن لاحظ الجميع أنه غريب.

واذا بصوت واهن لامرأة عجوز تتوكأ على عصا غليظة يقودها صبي أشعث يقترب مع ظلها الذي تجاوز المكان طولاً، نهض أحدهم واستقبلها أمام باب المخيم وأخذ يسألها عن طلبها محاولاً مساعدتها بعيداً عن سمع وعيون الآخرين بينما وقع خطوات حصان تقترب توقفت بجوار المخيم وبينما العجوز تهم بالعودة من حيث جاءت قابلها شبح رجل يقترب فصرخت:

- نافع . . نافع

ووقعت على الأرض. انحنى صالح فوقها وأخذ يجس نبضها بينما يسأل الواقفين عنها ومن أين قدمت، ثم ألقى بعباءته فوقها مشيراً الى أنها فارقت الحياة ثم طلب من اجميع العودة الى أماكنهم وطلب من الخدم حملها الى أحد البيوت للاعتناء بها وتجهيزها للدفن.

أفسح الجميع له مكاناً بينهم وعادوا الى تبادل الحديث، وبينما هو يتأمل وجه العجوز الذي لم يفارقه منذ أن لمحها تلفظ أنفاسها . . ونداء «نافع» . . . «نافع» يتردد في داخله ثم أخذ يركز نظراته على عبادة الذي لم يتفوه بكلمة منذ جلس ولم يمط اللثام عن وجهه.

- أهلاً بضيفنا . .

- أهلاً . .

ثم أماط عبادة اللثام عن وجهه بعد أن تأكد أنه لا يعرف أحد من الحاضرين وأخذ يسرد شكواه ويعرف بالديرة التي قدم منها وهو منكس الرأس . .

- طلبك متيسر يا عبادة . . . وأنت اليوم ضيفنا.

فزّ عبادة من مكانه ورفع رأسه وأخذ يتأمل الشيخ . . تلفت حوله ثم غادر المكان دون إذن وأمام قبر الميتة بعد أن تم الصلاة عليها فتح صالح الغطاء عن وجهها ثم قبل جبينها ورفع رأسه متأملاً من حوله ثم أعاد الكفن كما كان وواراها التراب واتجه الى فرسه وغادر الجمع الذي أخذ يتلاشى في الطرقات.

من أدب الرّحلات

منير الجبّان

في رومانيا
من " ماماريا" الى " براشوف "
لوحة تجمع الغابة والشاطىء
بألوان قوس قزح

لكل رحلة في الذاكرة مساحة تستوعب كل ما يملأ العقل والفكر والقلب والعاطفة ، والوجدان من أحاسيس وانفعالات ، ويحلو كثيرا لنا ان نعود اليها في اوقات تتقارب او تتباعد ، فتصبح سعادتنا بها اكبر ، لان شريط الذكريات وهو يعيد الينا مشاهد يختزنها اللاشعور ، يتيح لنا ان نعيشها مرة جديدة ..

هكذا يحس المسافر وهو في طائرة تحلق في السماء العالية ، فلا حدود ولا قيود .. تعبر بلدا بعد بلد .. لا سؤال ولا جواب ولولا قائد الطائرة يعرفك انك الان فوق هذا البلد ، وبعده فوق ذاك ، لا تلمح الا خطوطا بنية او خضراء او زرقاء ، من جبال او سهول او بحار .. لولا قائد الطائرة يعرفك وينبهك وأنت تنظر من نافذة صغيرة في الطائرة ، فتشعر بأكثر الاحاسيس عمقا واصالة ، تربطك بهذه الارض ، بهذا العالم ، بهذه الدنيا وقد كان لها ان تكون كبيرة ، فجعلوها صغيرة واجزاء متباعدة متناثرة وحدودا وقيودا .. فتفرح وتفرح كثيرا ان تتاح لك وانت في "كابين الطائرة " في السماء ما يتاح لك وانت على الارض ..

وفي بخارست كما في كل من مدينة اخرى في رومانيا تحس ان هذا البلد يريد فعلا ان يبني حضارة ومجدا ، وكأنه يسابق الزمن ليعوض بعض ما فات ، وكل شيء عنده ، يتيح له ان يتقدم بخطى واثقة فبلوغ الهدف حين تكون الثقة بالنفس شديدة وكبيرة يصبح مؤكدا ، وحين يعرف كل واحد دوره في رسم صورة المستقبل يساهم بكل عزم وتصميم في بناء مؤسساته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ويعطيها اكثر مما يأخذ منها ، وهناك زمن يجب ان يكون العطاء فيه اكبر ، وهو زمن التضحية الى ان يحين زمن يكون فيه الاخذ مجزيا

والمردود مغريا ،ولكن بدون هذا العطاء ، لن يكون هناك اخذ ، والذين يعطون ، الذين يبنون ، يشعرون بلذة العطاء ،وما اجمل ان يكون الحاضر منارة ترسم صورة المستقبل ..

واحد هذه الجوانب التي تعتز بها تلك البلاد .. هي استقبالها لملايين الزوار والسياح من مختلف انحاء العالم يستمتعون بطبيعة ساحرة توفرت لها كل الوان الجمال فكأنها الوان قوس قزح تستيقظ من سماء صافية زرقاء لتغفو في زرقة بحر هادئ مياهه تمسح عرق الشمس عن شواطئ ممشوقة كأنها اللانهاية ، ولقد اصبحت تلك الشواطئ التي تمتد مسافة ٢٤٥ كيلو مترا على البحر الاسود مواجهة الشرق شواطئ ينعم فيها السائح بمتعة تتيحها له رمال دافئة فالشمس تسطع ١٢ ساعة في اليوم ولكل شخص ما يقارب العشرة امتار مربعة من الرمال ، مساحة مريحة لا ازدحام فيها ، ميزة لا تجدها في كثير من شواطئ العالم بل ان عدم وجود الاحجار والصخور البحرية تجعل الانحدار من الشاطئ الى البحر مناسبا ، لسباحة الاطفال ، بعيدا عن اية مخاطر ، والبحر هنا قليل الملوحة غيرملوث ، لا تتواجد فيه اسماك خطيرة والشاطئ جاف انتشرت عليه مراكز سياحية متطورة وحديثة ، وكأنها عقد من اللؤلؤ . ماماي ا وغيرها سلسلة من المواقع السياحية التي توفرت فيها كل انواع واشكال الخدمات لتستوعب اكثر من ١٥٠ الف سائح في فنادقها وفيلاتها ، ومخيماتها يبدو فيها الابداع المعماري الحديث وقد اجتمعت فيها الطبيعة الفاتنة مع منجزات الانسان التي ارتقت الى مستوى متقدم من الابداع فمن واحات للرياضة الى المطاعم الفولكلورية التي تمتع الزائر بلوحات الفن الشعبي العريق الى المسارح الاثرية والحديثة والاوبرا والباليه ومعارض الفنون والرسم ويساعد السائح برامج اذاعية خاصة يومية بخمس لغات تقدم دليلا صوتيا عن كل البرامج الفنية والثقافية والترفيهية على الشاطئ ، ولمن يريد العلاج فهنا يجد الطين البحري وعلى مدار السنة ،مادة سحرية تفيد في علاج الكثير من الامراض الى جانب المياه المعدنية في مراكز صحية سياحية خاصة دافئة في الشتاء تستوعب الاف الاشخاص جاؤوا يتداوون بما توفره الطبيعة من علاج لاوجاع ، ويبدو ان في هذا الطين البحري والمياه المعدنية مايفيد في شفائها ، والسياحة العلاجية في رومانيا تحتل مرتبة عالية وتوفرت لها امكانات متميزة ففي اراضيها اكثر من ثلث المياه المعدنية في اوروبا كلها وبمواصفات علاجية مؤكدة ، ومثلها كذلك ينابيع المياه الحارة والطين العلاجي ، والعلاج الطبيعي في رومانيا ليس امرا جديدا فهو يعود الى اكثر من الفي عام .
وجاءت المدرسة الطبية الرومانية الحديثة لتركز الاهتمام على العلاج الطبيعي مستفيدة بما في ارضها ومائها وهوائها من مميزات فكان ان برر فريق من كبار الاختصاصيين في العلاج الطبيعي صارت لهم شهرة عالمية مثل الطبيعة العالمية الدكتورة آنا اصلان كما صار هناك منتجات طبيعية مستخرجة من الطبيعة وطرق خاصة بالعلاج الطبيعي يطبقها الاطباء الرومان. وكل هذه الامكانات صارت هي ايضا

في خدمة السياح الاتين من مختلف انحاء العالم طلبا لهذا العلاج الطبيعي الذي اعطته الطبيعة فطوره المختصون بالطب والسياحة الى سياحة علاجية والمراكز العلاجية السياحية عديدة وكثيرة، ينبتون، مانغاليا، فيليكس، هيركولين، سلانيك مولدوفا، اضافة الى المراكز المختصة في بوخارست بالعلاج الطبيعي مثل فلورا واتو بيني.

والمراكز السياحية العلاجية، تضمنها فنادق حديثة ويعمل فيها مختصون من اطباء وممرضات وتعالج فيها مختلف امراض الجهاز الحركي والعصبي، والهضمي، والكبد، والكلية، والقلب، والجلد، والامراض النسائية، وتحققت نتائج هامة في علاج امراض الروماتيزم، والدورة الدموية، والقلق النفسي والتوتر العصبي.

وهذه الثروة الطبيعية التي تستخدم في العلاج الطبيعي مع المنتجات الطبية الطبيعية التي تعتبر منتجات رومانية آصيلة مثل " الجيروفيتال "وال" اصلافيتال وهي من اكتشافات البروفسورة الدكتورة انا اصلان، والتي انتشرت كطريقة في علاج الشيخوخة او تأخيرها في اكثر من ٦٧ بلدا في العالم يضاف اليها الان منتجات جديدة هي " بل آفار" المستخرجة من الطين وهي من اكتشاف الدكتور ستيفان اونسيكو كالينيستي وهذه المنتجات. تفيد في علاج الكثير من الامراض العضوية مثلما هي مستحضرات تجميلية ويتم العلاج الطبيعي في المراكز السياحية العلاجية تحت اشراف طبي متخصص ضمن برنامج متكامل للعلاج والسياحة حيث يقوم الزوار برحلات ونشاطات رياضية وفنية وترفيهية وهكذا يمتزج العلاج بالترفيه ويعيش الزائر في جو طبيعي مريح يعيد اليه الصحة والعافية.

والمراكز الصحية التي تشرف عليها الدكتورة آنا اصلان عديدة وكثيرة والمراكز الرئيسي هو في بخارست حيث تقيم. قبل حوالي عشر سنوات التقيت بها في دمشق وكانت في زيارة الى سورية، بعدها تحدثت اليها وهي في مكتبها في بخارست. تتمتع بحيوية دافقة وكانت وقتها في سن الرابعة والثمانين، وذكاء حاد، فهي لا تنسى ادق التفاصيل، وقد ذكرتني وانا في مكتبها في مركز ابحاث الشيخوخة في بوخارست بزيارتها لدمشق والتي امضت معظمها في القاء المحاضرات العلمية وشرحت فيها ابحاثها المتقدمة والطويلة والتي بدأتها منذ اكثر من خمسين عاما عن مكافحة او تأخير الشيخوخة، وتقرأ في عيني هذه الطبيبة حلما كبيرا، انها تريد للانسان ان يحيا دائما شابا بلا شيخوخة، ومن اجل ذلك تتابع البحث والدراسة لعلها تصل الى الاجابة الكاملة عن كل تساؤلاتها وقد حققت الكثير، انها تعمل ساعات طويلة ولا تحس بارهاق العمل وهي في مركزها الذي تدير والمشافي والمنتجعات الصحية التي تشرف عليها، تشعر باعتزاز بانها استطاعت ان تنشيء مدرسة طبية لها قواعدها واصولها وضعتها هي بعملها المستمر ومتابعتها الدؤوبة في العلاج الطبيعي وفي مكتبها فالهاتف لا ينقطع عن الرنين .. من باريس ولندن وجنيف ومن امريكا ومن كل انحاء العالم أطباء على الهاتف يريدون التحدث اليها واستشارتها

في امر او مسألة علمية او طبية ، وناس من مختلف الاعمار يطلبون موعدا لزيارتها .. ويزدحم مكتبها بالمراجعين الاتين من كل مكان وهي تتحدث اليهم و تدرس مشكلتهم الصحية وتضع بمساعدة طاقم المختصين الذين يعملون معها برامج خاصة بكل واحد منهم ، وتتنقل الدكتورة اصلان بين مكتبها في مركز الابحاث وبين عيادتها المختلفة كل يوم لتشرف بنفسها على تطبيق برنامجها الصحي في مكافحة الشيخوخة وعلاج امراضها.. وفريق كبير من الاطباء الذين يعملون تحت اشرافها يقومون بعملهم بكل همة ونشاط واندفاع وحماس انهم يبحثون عن وسائل تتيح للانسان حياة افضل بلا امراض ولا اوجاع بلا قلق او تشاؤم من الشيخوخة لكي يبقى الانسان شابا تملأ الحياة بكل حيويتها كل خلية من خلايا جسمه . وحين تطوف في ارجاء هذه المراكز الصحية وترى اولئك الذين تقدم بهم العمر يركبون الدراجات ويسبحون ويقومون بالتمرينات الرياضية المختلفة وقد ارتسمت على وجوههم اسارير الفرح والبهجة تحس حقيقة بأهمية الرسالة التي تؤديها هذه الطبيبة المجدة والطاقم الكبير من المختصين الذين تدربوا في مدرستها .

وهناك تسمع قصصا كثيرة تحدث في المراكز الصحية العلاجية الكثيرة المنتشرة في مختلف انحاء البلاد .. فمنذ سنوات يتحدثون عن سيدة من اسكاندينافيا جاءت الى المركز العلاجي في " ايفوري ـ نورد " كانت على العكاز حين دخلت وبعد اسابيع ثلاثة كانت ترقص في بهو الفندق و " العكاز " على رأسها تلهوبه ، وبعده شخص اخر من زيمبابوي جاء الى المركز الصحي في "مانغاليا" على كرسي متحرك فقد كان مقعدا وخرج بعد فترة معافى يقود سيارته وهو يعود دائما بنفسه ليقوم بزيارة هذا المنتجع الصحي ، ويأتي زوار من كل مكان يتجولون في هذه المراكز الصحية يشاهدون بأنفسهم اسلوبا جديدا في العلاج الطبيعي استطاع ان يثبت فعاليته ونجاحه ، واصبحت هذه المراكز الصحية منتجعات سياحية يقصدها الاف الناس يجمعون بين الاستشفاء والنقاهة .

ونعود الى الطبيعة واحضانها فالشاطئ ليس هو وحده الذي يسكب في النفس هذا الدفء ..هناك الجبال اتلك التي قال عنها احد المفكرين الرومانيين سنة ١٧٠٠ ، بأن جبال " الكاربات " في رومانيا يمكن ان تنافس جبال " الاوليمبوس " في الاساطير اليونانية ، فالغابات الكثيفة والتي تغطيها كانت تمنح الحماية للشعب الروماني على مدى الفي سنة ، وجبال الكاربات قديمة قدم جبال الالب وهي ترتفع حتى ٢٥٤٣ مترا . وممراتها واوديتها لوحات جميلة وغاباتها التي تمتد عبر القرون تكثر فيها مختلف انواع الحيوانات .

الاودية والمنحدرات والممرات والانهر والجداول المائية العريضة والضيقة والكهوف والبحيرات بمياهها الشفافة وهي جميعا مكونات تلك اللوحة التي رسمتها الطبيعة بالوان متناسقة ، وهذه الجبال هي العمود الفقري للمحيطات السياحية في هذه البلاد مثلما هي العمود الفقري للنشاطات جميعا شبكة مركزية من الاوسترادات والطرق الدولية ومثلها من السكة

والخطوط الحديدية تجعل الحركة دائمة ومستمرة بين طرفي هذه السلاسل من الجبال .

وقضاء العطلة في هذه الجبال وعلى مدار السنة حيث الزوار والسياح يستمتعون بمشاهد اخاذة تحمل الى النفس الدعة والهدوء بعيدا عن التعب والارهاق والتوتر العصبي والنفسي فالغابات واشجارها تجعل المرء يستحم على الطبيعة في الاوكسجين والاوزون ينقي الصدر مما علق به من ملوثات البيئة انه كنز حقيقي للصحة والحياة ومع الحركة والنشاط والرياضة الصيفية والشتوية والتزلج على الجليد يخفق قلب السياحة في تلك البلاد ، ولقد اقيم عدد كبير من مراكز السياحة والمنتجعات والمصايف على قمم الجبال وفي مناطق غاية في الجمال ولعل اشهرها للسياح براشوف ، وفيها جميعا الفنادق الجميلة والفيلات والشاليهات ، والبيوت الريفية ، وكلها مفتوحة على مدار السنة ومنذ كانون الاول وحتى اذار فان رياضة التزلج على الجليد تطفى على كل رياضة في المنحدرات الثلجية على الجبال الى جانب المصاعد الجبلية والعربات والى جانب الرياضة والمسابح الشتوية فهناك الترفيه الذي توفره الحفلات الشعبية من غناء ورقص وهناك مدارس خاصة يقوم فيها مدربون بتدريب الزوار على ممارسة الانواع المختلفة من الرياضة وخلال اقامته يستطيع الزائر ان يتنقل بين القرى الجبلية التي تحتفظ بتقاليدها والى تلك المدن والتي ما تزال تحمل رومانسية القرون الوسطى والى البلدان ذات الفولكلور والصناعات اليدوية والتقليدية ، فتستمتع العين مما ترى .

واذا بك تمضي في زيارة هذه البلاد فتحس حقيقة بغنى الحضارة والتاريخ والفن والطبيعة مثلما تحس بنبض الحاضر والمستقبل . وترسم في ذهنك صورة هذه الثروة الطبيعية المتميزة والتي استطاعت رومانيا بامكانات وقدرات متقدمة وبحركة لا تتوقف على التطوير والتحديث ان تخلق صناعة سياحية على درجة كبيرة من التكامل وجعلت من السياحة صناعة تستند الى دعائم وركائز تمتد الى مختلف القطاعات الخدمية والتطور المتسارع يجعل الزائر يشعر في كل مرة يرور فيها تلك البلاد بأنه يتحسس وبدرجة اعمق صور ذلك الجمال الطبيعي الذي استطاع الجهد البشري ان يرسم منه لوحات مؤثرة ومدهشة .

منير الجبان

مسكين الدارمي

(...ــ ٨٩هـ) (...ــ ٧٠٨م)

شاعر عربي من القرن الأول الهجري

عبد المعين الملوحي

تعودت خلال قراءاتي للادب العربي أن أشير الى ملاحظاتي في هامش الكتب التي أقرؤها منذ بدأت القراءة الجدية في الثلاثينات من هذا القرن ، فاذا عدت الى هذه الملاحظات بعد سنوات ، وجدت موقفي منها عجيبا حقا ، فهناك ملاحظات أنكرها اليوم أشد الانكار وكنت أقرها امس أشد الاقرار ، وهناك ملاحظات أقرها اليوم أشد الاقرار ، وكنت أنكرها أمس أشد الانكار .

هناك اجد ملاحظات ذكية أفرح بها وأسر ، وهناك أجد ملاحظات غبية أحزن منها وأغضب .

ما أحسن ان يدون القارىء ملاحظاته على هامش كتبه ، وما أحسن أن يبدأ بتسجيلها منذ مطالعاته الاولى ، لو فعل ذلك لرأى بأم عينيه لوحة كاملة تعرض عليه تطور عقله وفكره ونفسه وقلبه .

يبدو لي اني لو جمعت هذه الملاحظات الان لكانت تاريخ انسان عربي ، عاش في هذا العصر ، رافقه منذ كان طفلا في سنه وتفكيره ، حتى صار رجلا ثم كهلا ثم عجوزا ، انها سجل صادق لتطور هذا الانسان العربي الذي بدأ مطالعاته في الثلاثينات ثم هو ما يزال يحاول ان يكون (مثقفا) في الثمانينات من هذه الملاحظات التي سجلتها على هامش ديوان مسكين الدارمي عندما قرأته هذه الملاحظة :

(نموذج لفكر عربي حر ، يعبر عن حريته بموقفه من المرأة ودعوته الى احترام شخصيتها في السلوك والحياة) .

فمن هو مسكين الدارمي ، وأين نجد موقفه المتحرر في شعره .

أظن اولا انكم سمعتم باسم هذا الشاعر (مسكين الدارمي)

وأؤكد لكم ثانيا انكم تحفظون بعض شعره ولا سيما بيتيه المشهورين اللذين يغنيهما صباح فخري

قل للمليحة في الخمار الاسود
ماذا فعلت بناسك متعبد
قد كان شمر للصلاة ثيابه
حتى بدوت له بباب المسجد

وأعتقد ثالثا انكم تعرفون مناسبة هذين البيتين :

جاء تاجر يبيع الخمر السود الى المدينة فكسدت بضاعته ، فشكا امره الى مسكين الدارمي فقال الشاعر هذين البيتين ، فلم تبق في المدينة جارية الا اشترت خمارا اسود ونفقت بضاعة التاجر في ايام معدودة .

ولكني قبل ان أخوض في موضوعي الاصلي واعدد مواقف هذا الشاعر العربي التقدمي من المرأة وتحررها اريد ان اقف قليلا عند نقاط ثلاث تشغل بالي على الدوام وتتعلق تعلقا مباشرا بموضوعي ، والح عليها الحاحا في كل ما اكتب .

النقطة الاولى : الحرية ، كل حرية ، حرية الانسان وحرية المرأة لم تدرك في يوم واحد ، انها ثمرة عدد كبير من الشهداء والشهيدات ، ماتوا في سبيل الحرية قال الجواهري :

لثورة الفكر تاريخ يذكرنا
بأن ألف مسيح عندها صلبا

أول امرأة هندية رفضت ان تحرق مع زوجها الميت فأحرقوها رغم انفها كانت اول شهيدة تمسكت بحقها في البقاء والحياة .

أول امرأة صينية أبت ان يزوجها ابواها بمن لا تحبه ، وبمن لم تختره بنفسها فحبسها أهلها او قتلوها دفاعا عن تقاليد الزواج الاقطاعية في الصين كانت اول منخطت بدمها حق المرأة في اختيار زوجها .

أول امرأة في بلادنا رفعت الحجاب عن وجهها وبرزت للناس فاضطهدوها وسالت دماؤها في احد شوارع دمشق كانت اول شهيدة تدافع عن حق المرأة في رؤية الطبيعة والدنيا دون حجاب .

وهكذا توالت قوافل الشهداء عبر التاريخ الطويل دفاعا عن الحرية .

وما تزال تتوالى لتحقيق انماط جديدة من الحرية ابدعها تطور الانسان والمجتمع في العصر الحديث ، مثل حق العمل وحق الاجور المتساوية .

النقطة الثانية :

هي ان الحضارة الحديثة ، بما فيها من رقي ورفاه ، ليست من نتاج شعب واحد ، ولا ارض واحدة ، وانما هي بناء ضخم اشتركت فيه كل شعوب الارض فليس لشعب ان يفتخر على شعب بأنه هو الذي بنى الحضارة .

أول من ركب جذع شجرة ليقطع نهرا كان جد الملاح الكوني الذي يقطع اجواء الفضاء في هذا العصر .

أول من قذف حجرا ليصطاد ظبيا او يطرد ذئبا كان أبا لمن يقذف صاروخا في هذا العهد .

أول من حفر كهفا في جبل ليسكنه كان اخا لمن يبني ناطحات السحاب في هذا الزمان .

الاسكيمو في ثلوج القطب أسهموا في بناء الحضارة .

الهنود الحمر في المكسيك كانوا من اوائل من ابدعوا الفن .

المصريون القدماء كانوا اول من بنى الاهرامات وابتدعوا تحنيط الاموات

الصينيون كانوا اول من اخترع الموصلة واكتشفوا البارود .

الفينيقيون كانوا اول من اخترع الكتابة .

اذن ، فان كل الشعوب ، في كل بقعة من بقاع الارض ، اشتركت في بناء هذا الحضارة التي استكملت لنستمتع بها الان .

النقطة الثالثة :

ان حكمنا على شاعر او كاتب او مفكر لا يجوز ان يبنى على مفاهيم العصر الحاضر ، وانما ينبغي ان نحكم عليه بمقاييس عصره ، فالذي يبدو طبيعيا وبديهيا في هذه الايام لم يكن طبيعيا وبديهيا في الايام السابقة .

ثورة سبارتاكوس الذي قاد العبيد في القرن الاول قبل الميلاد هي ام ثورة العمال والفلاحين في القرن العشرين ، كانت الثورة الاولى التي مهدت لثورات عصرنا الكبرى .

ثورة الزنج في القرن الثالث الهجري هي التجربة الاولى لثورة الشعوب الملونة ، ثورة السود في افريقيا وثورة الصفر في آسيا .

قبس النار الذي سرقه بروميثيوس من الشمس وخبأه في قصبة ، فغضبت عليه الالهة وقيدته على صخرة في اعلى جبال القوقاز ، وارسلت عليه نسرا يأكل من كبده كل يوم ، هذا القبس الضئيل هو مبدع القنبلة الذرية ثم القنبلة الهدروجينية ، وغيرها من سلسلة القنابل المدمرة – ويا للاسف – في القرن العشرين .

وتقولون : لقد انتقلنا الى شاعرك بعد حديثك الطويل عن نقاطك الثلاث ، فمن هذا الشاعر ؟ وما الذي صنع من اجل حرية المرأة في القرن الاول الهجري ؟

وأقول لكم في صراحة وصدق :

ان لكم الحق ، كل الحق ، في غضبكم علي وضيقكم بنقاطي الثلاث .

ولكنكم سترون ان هذا الحديث الطويل ضروري لفهم الشاعر الثائر وربطه بتيار الحرية والحضارة والتقدم ، بنضال الانسان المستمر ليكون انسانا .

أظن انكم تعرفون الان اسم الشاعر : انه مسكين الدارمي .

فمن هو مسكين الدارمي اولا وما هي مواقفه من حرية المرأة العربية ثانيا

مسكين الدارمي هو ربيعة بن عامر من بني دارم ثم من بني تميم ، قبيلة الشاعر الفرزدق شاعر عراقي شجاع ، كان من سادات بني دارم وعاش في القرن الاول من الهجرة وتوفي عام تسعة وثمانين هجرية وعام سبعمائة وثمانية ميلادية ، ولقب مسكينا لبيت قاله :

أنا مسكين لمن يعرفني
لوني السمرة الوان العرب

وكثيرا ما كانت العرب تطلق على الشاعر لقبا مستمدا من كلمة مرت في شعره .

ديوان مسكين :

جمع الاستاذان عبد الله الجبوري وخليل ابراهيم عطية شعر مسكين واصدراه في ديوان عام ١٣٨٩ هـ الف وثلاثمائة وتسعة وثمانين . و ١٩٧٠ الف وتسعمائة وسبعين ، في بغداد .
فأين دعوة مسكين الى حرية المرأة ودفاعه عنها في هذا الديوان ..؟
نستطيع ان نجمع العناصر التدميية والثورية في شعر مسكين بالوصايا التالية :

١ – لا ضرورة للغيرة على المرأة مادمت مطمئنا الى عفافها وشرفها .

٢ – لا خير في بيت زوجي لا يزوره الناس في حضور الزوجين معا .
٣ – لا بأس من نظر الناس الى زوجتك فالمرأة الحرة لا يفسدها النظر .
٤ – اترك بيت زوجتك لها دون مراقبة .
٥ – الحب هبة الهية يقوم عليه الزواج، ولا يأتي الحب عن طريق الضرب بالسوط او الحبس في البيت .
٦ – المرأة حرة في استقبال زائر واحد او عدة زوار في بيتها بحضور زوجها او غيابه .
٧ – دع لزوجتك الحرية وانت مقيم معها في المدينة ولا تراقبها ، فأنت لاتستطيع مراقبتها اذا سافرت .
٨ – لا تقعد في بيتك الى جانب زوجتك ولا تجعل البيت قبرها .
٩ – شرف المرأة يصان بها وبسلوكها ، ولا يصان ببناء الاسوار والقصور .
١٠ – لا تتهم امرأتك وان قال القائلون وافترى المفترون ، حتى تتحقق وتختبر .
١١ – الغيرة حسنة في حينها وعند الضرورة ، وقبيحة في كل وقت .
١٢ – ارتيابك في سلوك زوجتك ، وشكك في طهارتها مدعاة لها الى سلوك غير مستقيم واغراء لها بالانحراف .
١٣ – يكفي الرجل في ثقته بزوجته ان تكون ذات خلق كريم ودين مستقيم .
١٤ – لا تخن زوجتك فتخونك ، فأمانة الرجل مرتبطة بأمانة المرأة . وخيانته لها تسوغ خيانتها له .
١٥ – اذا خانتك زوجتك فالطلاق وحده سبيل الخلاص ولا حاجة لعقوبة غير هذه العقوبة .

تلك هي العناصر الاساسية في تنكير مسكين وسلوكه جمعتها في خمسة عشر عنصرا ويالها من عناصر ما تزال حتى في هذا العصر ، نفتقر اليها ونطالب بها .

ولكن اين شواهد هذه المواقف في شعره ؟
الشواهد كثيرة تتكرر مرارا ، ولكني أسألكم الصبر على لغة مسكين ، فلغته تحتاج في كثير من الاحيان الى ترجمة من العربية الى العربية لسبب واحد هو اننا لا نعرف لغتنا – ويالالاسف .
قال الاصمعي (امالي المرتضى) : ٤٧٥ ، الديوان ٤٠ – ٤١) :
أحسن ما قيل في الغيرة قول مسكين الدارمي :

ألا ايها الغائر المستشيط
علام تغار اذا لم تغر ؟
فما خير عرس اذا خفتها
وما خير بيت اذا لم يزر ؟
تغار على الناس ان ينظروا
وهل يفتن الصالحات النظر ؟
فأني سأخلي لها بيتها
فتحفظ لي نفسها او تذر
اذا الله لم يعطه ودها
فلن يعطي الود سوط ممر
يكاد يقطع أضلاعه
اذا ما رأى زائرا او نفر
فمن ذا يراعي له عرسه
اذا ضمه والمطي السفر ؟

وهكذا يدعو مسكين الى عدم الغيرة العمياء على المرأة ، ما دامت المرأة حافظة لنفسها ، محبة لزوجها ، كما يدعو الى تبادل الزيارات بين الناس فما الفائدة من زوجة تخاف عليها في كل حين ؟ وما فائدة بيت لا يزوره الاهل والاصدقاء ؟ ثم انك ايها الغيور تخاف ان ينظر الناس الى اهل بيتك وزوجتك كأن المرأة الصالحة محتم عليها ان تفتتن اذا نظرت الى الناس .
ثم يضع مسكين قاعدة لسلوكه في بيته انه سيعطيها حريتها في البيت ويخليه لها ، فان حفظت نفسها فنعم ما تفعل ، وان لم تحفظ نفسها فلتذهب حيث تشاء فهي ليست لي بزوج وبيني وبينها فراق الابد .
ان الحب بين الزوجين لا يبنى على الاكراه والارهاب ، ولكنه يبنى على التفاهم المتبادل ، والسوط الذي جدلته ثم ضربت به زوجتك لا يعطيك حبها بل هو طريق الى شذوذها ونفورها .

ثم يعرض مسكين لحالة الغيور ، انه يكاد يقطع اضلاعه اذا زاره زائر في بيته او اذا خرج في سفره يعيد ويسأله في هدوء :

هبك استطعت ان تحفظ اهلك وانت في بلدك فمن ذا الذي يحفظها لك اذا سافرت ؟

أليس طريفا ان تسمع شاعرا عربيا في العصر الاموي وفي القرن الاول للهجرة • يدعو الى حرية المرأة والى زيارة الاصدقاء للبيت ، ثم يحمل على كل من يغار على اهله اذا زاره زائر او سافر في عمل ويهاجم كل من يرى في ضرب المرأة وحجرها سبيلا الى اكتساب حبها والاطمئنان الى سلوكها وعفافها •

وهذه قصيدة ثانية في الموضوع :

قال المرتضى : وكان مسكين كثير اللهج بالقول في هذا المعنى فمن ذلك قوله (امالي المرتضى ١ : ٤٧٥ الديوان ٤٧)

واني امرؤ لا آلف البيت قاعدا
الى جنب عرسي لا افارقها شبرا
ولا مقسم لا تبرح الدهر بيتها
لاجعله قبل الممات لها قبرا
اذا هي لم تحصن امام فنائها
فليس ينجيها بنائي لها قصرا
ولا حاملي ظني – وان قال قائل
على غيرة حتى أخيط بها خبرا
وهبني امرأ راعيت مادمت شاهدا
فكيف اذا ماغبت عن بيتها شهرا

في هذه القصيدة يرسم الدارمي سلوكه في بيته وموقفه من زوجته / انه لا يقعد في البيت يراقب زوجه ولا يفارقها ، بل هو يخرج من بيته ويسعى الى رزقه ، فاذا خرج لم يحلف على زوجه كي تبقى في البيت ، فلا تبارحه خوفا منها او خوفا عليها ، ليجعل البيت قبرا لها في حياتها لا تفارقه الا الى قبر اخر بعد مماتها ، ولكنه يترك لها حريتها في الخروج من البيت حين تريد •

ويعلل مسكين موقفه هذا التقدمي بقوله : اذا لم تكن زوجتي مخلصة لي وهي في خيمة او كوخ او بيت صغير ، فليس يجعلها أمينة مخلصة ان ابني لها قصرا أسجنها فيه وأقيم عليها الابواب والحراس والارصاد فالمرأة الوفية لا تغويها رقة الحجاب ، والمرأة المنحرفة لا تحصنها منعة الابواب •

ثم ان الناس ليقولون الاقاويل ويرجون الظنون ولست ابالي بهم ولا بأقوالهم وظنونهم ما دمت مطمئنا الى حب زوجتي واخلاصها ووفائها •

ويعود مرة اخرى فيكرر معنى بيت سابق في القصيدة الاولى فيقول : اذا حميت زوجتي من السقوط وانا في بلدها وبيتها فكيف احميها اذا غبت عنها شهرا ، أليس من الاولى ان يصونها شرفها

وفي القصيدة الثالثة يفرق مسكين الدارمي بين الغيرة المعقولة والغيرة القاتلة ، فالغيرة قد تحسن احيانا ولكنها قبيحة في اغلب الاحيان ،والافراط في الغيرة يغري المرأة بالخروج عن سلوكها السليم ، كما يغري الناس بالتحرش بها ومطاردتها •

ان خير حصن للمرأة خلقها القويم وحبها اما غير هذا الحصن فليس حصنا •

واخيرا يرى مسكين رأيا جريئا عجيبا : ان من حق امرأتك اذا رأت منك مايريبها ان تفعل بك ما يريبك ، فأنتما متساويان في الحق وفي الواجب •

فاذا انحرفت انت بدا لها ان تنحرف واذا اطلعت منك على ريبة او شكت ان تطلع منها على ريبة :

قال مسكين (امالي المرتضى ١ : ٤١ ، الديوان ٦٧) •

أحسن الغير في حينها
وأقبح الغيرة في كل حين
من لم يزل متهما عرسه
مناصبا فيها لوهم الظنون
يوشك ان يغريها بالذي
يخاف او ينصبها للعيون
حسبك من تحصينها ضمها
منك الى خلق كريم ودين
لا تظهرن منك على عورة
فيتبع المقرون حبل القرين

ولكن مسكينا يقر ويؤيد غيرة أخرى ، هي غيرة المحارب على حرمه حين يهاجمه عدو وتضطر النساء الى الخروج من بيوتهن وخدورهن هاربات ، وعندئذ تكون الغيرة على النساء مقبولة وعندئذ يجب على الرجال حماية النساء وانقاذهن •

قال مسكين :

فغرنا ان غيرتنا كذاكم
اذا برز النساء من الحجال

اذن فهكذا تكون الغيرة على النساء والا فلا •

واحب ان اشير بهذه المناسبة الى ان العرض عند العرب ، ليس كما يفهم منه اليوم ، مقتصرا على العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ، ولكنه بمعناه الاصلي العريض : شرف الانسان وحسبه •

جاء في لسان العرب (مادة عرض) :
وعرض الرجل حسبه ، وقيل : نفسه وقيل خليقته المحمودة ، وقيل : ما يمدح به ويذم .. يقال : اكرمت عنه عرض اي صنت عنه نفسي وفلان نقي العرض اي بريء من ان يشتم او يعاب .
وقيل في قوله : شتم فلان عرض فلان معناه ذكر اسلافه وآباه وقال مسكين الدارمي :
رب مهزول سمين عرضه
وسمين الجسم مهزول الحسب
معناه : رب مهزول البدن والجسم كريم الاباء .
وقال الشاعر : " وادرك ميسور الفتى ومعي عرضي " .
اي افعالي الجميلة .
ولكن ما رأي مسكين اذا خانت المرأة زوجها ، ولم يخنها ، وحفظ عهدها ولم تحفظه :؟
هنا يبرز مسكين رجلا تقدميا عجيبا .
اذا لم يكن سبيل الى التفاهم بين الزوجين ، فليمض هو في طريقه ولتمض هي في طريقها لا يحبسها ولا يضربها ولا يقتلها .
ان الزوج مثل الصديق ، فاذا ائتمنت الصديق فخانك ، واذا وفيت بعهده فلم يف بعهدك ، فليس امامك الا فراقه وكذلك زوجتك ، اذا خانتك فليس بينك وبينها الا الطلاق ، ان الطلاق هنا ، وفي هذه الحالة ، حل صحيح سليم لسلوكين مختلفين وقلبين متنافرين وانسانين متباغضين .
ويهمني بهذه المناسبة ان اذكر ان لينين في كتابه حق الشعوب في تقرير مصيرها يقررحق الزوجين في الطع

يقرر حق الزوجين في الطلاق حين لا يكون هنالك سبيل الى عيشهما معا .
قال مسكين :
اذا ما خليلي خانني وائتمنته
فذاك وداعيه ، وذاك وداعها
رددت عليه وده وتركتها
مطلقة لا يستطاع رجاعها

ان هجر الصديق الكاذب ، وطلاق الزوجة الخائنة حلان سليمان تماما وفي كل حين اذا ثبتت خيانة الصديق والزوجة .
أليس هذا رائعا في ذلك العصر منذ أربعة عشر قرنا .
ونحن في هذا العصر ما يزال كثير منا يحجرون على المرأة فلا تخرج من بيتها الا الى الحمام او الاهل ثم الى القبر ،
وما تزال كثيرات من نسائنا يضعن الحجاب ويرين فس الرجال ذئابا لا اخوانا ، واحسن ما يصنعه اذا طرق الرجل الباب ان يغيرن اصواتهن ويقلن له : مين ؟
ولكن ..
ماذا لقي مسكين من نتائج حريته وعقابيل تقدميته ؟
لم تضطهده الدولة ولم ينبذه المجتمع ، ولم تغضب القبيلة ، ولكن زوجته التي دافع عن حريتها هي التي اضطهدته ونبذته وغضبت عليه وسخرت به .
انها تذكرنا بزوجة سقراط .
عندما قال مسكين هذه الابيات (الديوان ٤٥) .
ناري ونار الجار واحدة
واليه تبكي تنزل القدر
ما ضر جاري اذا جاوره
ان لا يكون لبيته ستر
أعمى اذا ما جارتي خرجت
حتى يواري جارتي الخدر

عندما قال مسكين هذه الابيات ، قالت له امرأته وكقانت كما يقول الشريف المرتضى ، تماضه (اي تعاكسه وتزعجه) اجل انما ناره ونارك واحدة لانه اوقد ولم توقد ، والقدر تنزل اليه قبلك لانه طبخ ولم تطبخ ، فأنت تستطعمه (اي تطلب طعامه) وعلقت على البيت الثاني تعليقا اوهى وامر (حماسة الخالدين) فقالت حين سمعت بيته :
ما ضر جاري اذا جاوره
ان لا يكون لبيته ستر
- بل يتسور على جارته (يقفز على الحيطان) فلا يحميها سترها منه وقالت مرة اخرى :
أجل ان كان لجارك ستر هتكته .
ذلك كان بعض جزاء الشاعر المسكين الذي دافع عن المرأة من المرأة .
أليس صحيحا ان اعظم انصار الحرية هم أكثر الناس تعرضا للاضطهاد .
وكان كل ما فعله مسكين انه وصف زوجته وصفا دقيقا ، فهي مريضة بمرض المشاكسة والمعاكسة تحن الى الشغب والضخب كما يحن الجائع الى اللحم او كما تحن الحبلى الى ما تشتهيه من المآكل والمشارب .
فمن كان منهما على حق أمسكين ؟ أم زوجة مسكين ؟
ولكن ..
هل اقتصر مسكين في شعره على هذا المضوع

موضوع المرأة وحريتها .. كلا ثم كلا بل كانت الحكمة والفخر والحماسة من أغراضه .
واليكم بعض ابياته من هذه الموضوعات :
١ - ليست الاحلام في حال الرضا
انما الاحلام في حال الغضب

٢ - اضاحك ضيفي قبل انزال رحيله
ويخصب عندي والمحل جديب
وما الخصب للاضياف ان يكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيب

٣ - اخاك اخاك ان من لا اخا له
كساع الى الهيجا بغير سلاح

٤ - ايها السائل عما قد مضى
هل جديد مثل ملبوس خلق

اسمحوا لي في نهاية محاضرتي ان الخص عناصرها :
١ - المثل العليا وفي رأسها الحرية كانت ثمرة عدد كبير من الضحايا والشهداء .
٢ - الحضارة ليست من صنع شعب واحد ، ولكنها ملك للانسانية جمعاء .
٣ - الحكم على المفكرين والشعراء والادباء اينبغي ان يتم بمقاييس عصرهم
٤ - مسكين الدارمي شاعر في القرن الاول الهجري سبق عصره بمراحل . بل انه لا يزال يسبق العصر الحديث في بعض اقطار الارض .

واختم محاضرتي بكلمة الكاتب البلغاري (ميرون ايفانوف) :
(ما اكثر الافكار السامية التي تختفي دون ان تترك اثرا ، لسبب واحد بسيط هو ان زمانها لم يحن) .
وأضيف تعديلا على هذه الكلمة فأقول (ان الافكار السامية لا يمكن ان تختفي الى الابد ، بل هي تكمن وتتربص حتى اذا حان زمانها ظهرت قوة جامحة وسيلا متدفقا واستطاعت ان تغير وجه الحياة .
أيتها الحرية ، كم شاعر ثائر غنى باسمك الكريم..

عبد المعين الملوحي

الشيخ كامل .. رجل مبروك

محمد أبو صوفه

كانت البقعة التي فيها قريتنا بقعة جميلة رائعة، فلقد غطت أفقها الغربي غابة كبيرة متشابكة من أشجار الزيتون والكستناء، من بينها أشجار تعد أعمارها بالقرون نهضت من بين السفوح الرقيقة وراحت تغمر الكون ببحر من الخضرة النضرة . أما من الجهة الشرقية فقد اتصل الفضاء اتصالا رائعا بذلك السهل المنبسط الخصيب الذي وشحته الى مالانهاية حظائر خضراء صغيرة .. بينما اخترقته بعض أشجار الحور العملاقة في صفوف منظمة أحيانا .

أما المياه في قريتنا فقد كانت تتدفق من بين الصخور .. ، نقية نقاء البلور حاملة الاصداء الناعمة في تلال الغابة الصامتة المهيبة .

لقد كانت طفولتي في القرية ازاء هذا العيش الناعم سعادة متصلة .. وكنت امضي بعض ساعات نهاري، الهو والعب مع نفر من الاقراب تحت الاشجار الوارقة والينابيع الفوارة .

ولكن هذه السعادة لن تدم، بل ذهبت أدراج الرياح دفعة واحدة، كان ذلك قبل ثلاثين عاما على وجه التقريب .

وفي يوم من ايام ايلول فاجأني والدي بقوله ستذهب يا بني غدا الى الكتاب لتتعلم القراءة والكتابة، فصعقت لهذا الخبر وذهلت له أيما ذهول .. اذن فقد ولت أيام اللعب واللهو، وجاءت أيام الجد لا محالة، بل جاء الحساب والعقاب ؟ فلقد سمعت من تلاميذ الكتاب الشيء الكثير عن

قصص العذاب وحكايات الضرب بالعصا ، يقوم بدور البطولة فيها صاحب الكتاب الشيخ كامل .

وحينما انتظمت مع التلاميذ في الكتاب في اليوم التالي .. لم يكن نصيبي من العصا بأقل من نصيب زملائي .. عند ذلك بدأت كراهيتي للشيخ تتأصل ، وتزداد يوما بعد يوم .

كان الشيخ كامل رجلا مخيفا ، عريض الكتفين ، طويل القامة ، ذا كرش متدل ، بدينا غليظ الانف وعيناه تميلان الى الحدة ، كما كان متجهم الوجه في غير انقطاع ، ماكر في غير هوادة ، يعرف كل شيء حتى الحركات الصغيرة التي كنا نخفيها بعيدا عنه .

وكنا نتهامس فيما بيننا من نحن الصبية : ان الشيخ كامل قد رزق عينين خلف اذنيه ترصدان تحركاتنا وسكناتنا ، وان كان ثمة ميزة يتميز بها الشيخ ، فانها مشيته العجيبة فانت لا تملك نفسك اذا ما رأيته الا ان تسأل : هل يستطيع هذا الرجل العدو دون ان يتكفيء على وجهه ؟ فهو اذا مشي رجع صدره الى الخلف قليلا وتقدم بركبته الى الامام قليلا ، فاذا نظرت الى جزء جسمه الاعلى دون الاسفل ، خلته هودجا فوق جمل يتمايل ، واذا نظرت الى جسمه الاسفل دون الاعلى حسبت ان شيئا خفيا يدفع مفاصل ركبته الى الامام كلما خطا ، ومع ذلك كان أهل القرية يكنون للشيخ كل اكبار واجلال وكان هو بدوره يبادلهم هذا الاجلال ، ولولا ذلك الاجلال المتبادل ، لما مكث الشيخ في هذه القرية هذه المدة التي تزيد على عشرسنوات بينهم ، يعلم صبيانهم ويقرأ لهم المولد في اكثر الاحيان .

وكان اهل القرية يسمونه في اكثر المناسبات (الخطيب) وهي تسمية كانت تطلق على كل من يقرأ ويكتب ، ما دام قادرا على ان يقرأ المكتوب ، ويفسر مضمونه .

وكان للشيخ كامل صوت يشبه الرعد ، ويعم الاذان ، ويخرس الالسنة ، عن النطق ، والكلام والويل لمن يخطيء او يلحن في قراءة الدرس او يتأخر ويتوانى عن نسخ واجبه البيتي ، فلن تلفت رجلاه من الفلقة بالعصا ، وتلك كانت هوايته المفضلة

ولم اكن ادري لماذا كان يطرب اشد الطرب ؟ وتظهر على وجهه علائم الرضا والقبول حين نصرخ باكين مستنجدين ؟ أهو اقتناعه بأننا سوف نتجنب التقصير مرة اخرى ؟ .. ام تلذذه لسماع كلمات الاستغاثة والرجاء ، خارجة بشكل عجيب من افواه الصبية الصغار ، وكأنها لهاث المبهور..

وقد شكوته ذات يوم لوالدي وقلت له :

" انظر الى يدي يا أبي كيف تورمتا من عصا شيخنا العاتي الجبار ..؟ "

فما كان من والدي الا ان اعتدل في جلسته ، وعلى شفتيه ابتسامة السرور ، وفي وجهه علامة البهجة ، وقال بصوته الخفيض ، ولهجته المتأنية : " يا بني ان عصا المعلم من الجنة " .

فلم تعجبني هذه الموعظة اذ ذاك ورحت افكر بأمر الجنة التي تنبت هذه العصي ، واقتنعت نفسي أنها سوف لا تكون الجنة التي قرأنا عنها في الكتاب الكريم ، والتي

عرضها السموات والارض اعدت للمتقين ، وهي أمنية الناس جميعا لأن فيها السرور الابدي والخلود السرمدي .

ولكن سرعان ما انقطع حبل تفكيري ، حينما سمعت والدي يقول ويهز رأسه ، وقد تبدى في ملامح وجهه الاسى والحزن :
" اللهم ارزقه الولد الصالح "
فأدركت منحديث والدي ، ان الشيخ كامل لم يرزق الولد ، رغم انه تجاوز العقد الرابع من عمره ورجعت بي الذاكرة الى شهور خلت، حين تجرأ أحد الصبية وسأل الشيخ يوما عن أولاده وأنه لم يرهم ، ويتوق الى لقياهم ، واللعب معهم .. فلم يكن من الشيخ الا ان اطال النظر الى ذلك الصبي فاحصا اياه بنظرات حانية ، ثم طأطأ برأسه الى الارض ، وحين رفعه ثانية ، كانت الدموع تترقرق في عينيه ، ولم نفهم معنى ذلك ولم ندرك له سببا ..

وذات صباح مشرق جميل تخلف الشيخ كامل عن الحضور الى الكتاب وامتد غيابه الى ساعتين او اكثر وشاعت التنبوّات بين الصبية ، فأخذوا يقولون :
" لعله مريض ، لعله نزل به ما يشغله ، لعله ذهب الى العاصمة يتداوى عند الطبيب الذي تعود ان يذهب اليه ايام الجمع فقط .. .. لعله مات .."

وكان هذا التنبوّ الاخير مثارا لبهجة الصغار ، حين تنبأ به احد الخبثاء منهم فجعلوا يرددونه كما لو كان حقيقة لاجدال فيها ، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فأثارت فينا موجة عارمة من الصخب والضجيج ، كأنما تنطلق من كل قيد ما دام الشيخ كامل اصبح في ذمة الله .
وتعالى منا ضجيج لا حد له ، كأنما كان غياب الشيخ فرصة لا يعوضها معوض ، وامعنا في لهونا وصراخنا ، حين وجدنا ان لا رقيب ولا حسيب .

ولكننا فجأة وعلى حين غرة وقفنا عن ذلك كله دفعة واحدة وتسمرت عيوننا عبر الزقاق المؤدي الى الكتاب ، وقد عقد الرعب ألسنتنا وسادنا صمت مطبق رهيب حتى تناهى الى اسماعنا خرير المياه من تلك الينابيع .

.. يا للهول .. يا للمصيبة .. لقد وصل الشيخ وها هو ذا يختال في مشيته العجيبة وكأنه الديك الرومي الهائل، وحوله أهالي القرية يصفون اليه بأدب واحترام ، وهو يتحدث بوقاره المصطنع ، وما ان وصل الكتاب حتى توجه الى صفته الخشبية وأخذ موقفه فوقها كالمعتاد..وقد اختفى ذلك التجهم المرعب من وجهه ، وحلت في موضعه بسمة عريضة لعلها أنزلت في قلوبنا الرعب والفزع ، لأنها في عرفنا كانت تعني أن الشيخ الجبار سوف ينهال ضربا بعصاه وكأنما هويبتهج لأناتنا ، قبل أن يلامس ذلك أذنيه ومن اجل هذا فهو يطرب ، وليست ابتسامته الا بداية ذلك وتمهيدا له

وبدأنا نترقب ما سينزله بنا على نحو عشوائي ، لا تمييز بين آثم وبرىء .. مرت دقائق كانت في طولها كأنها العمر كله بينما هو في شغل عنا ، فقد خلع عمامته ثم وضعها على احدى ركبتيه وأخذ

يدندن بصوت خفيض بما يشبه احدى اغانيه الدينية التي كانت تعلو بها عقيرته وهو يردد :

الصبح بدأ طلعته
والليل دجى من وفرته
فاق الرسلا فضلا وعلا
اهدى السبلا بدلالته

وأخذ ينفض شال العمامة ليعيده اكثر تأنقا وبدأ رأسه الحاسر يتمايل مع النغم الخافت ذات اليمين وذات الشمال ، حتى اذا ما انتهى من ذلك وقف نشيطا ينفض كتفيه باردان جبهته الداكنة اللون ويصلح من وضع حزام القطفان على كرشه المترهل ، ثم أخذ ينظر الى وجوهنا وفي عينيه الرقة والحنان وفي غير ما جلبه صفق بيديه وايذانا منه في اجازة طيلة النهار .

وظللنا بعض الوقت بين مصدق ومكذب ، وجعل بعضنا يتلفت الى بعض في حيرة وتساؤل وريبة غير مصدقين ما سمعناه .. ولاحظ هو ذلك منا فزادت ابتسامته اتساعا حتى بدت أسنانه المصنوعة ، ثم أشار الينا بأن نسرع في الانصراف .. فكتمنا فرحة في صدورنا وحمل كل مناحقيبة كتبه ، وخرجنا نتعثر ببعضنا ونصطف في خط واحد ، وقدوقفنا أعقاب بعض ولكنه اوقفنا عند عتبة الباب ، وأخرج من جيب قفطانة قرطاسا مليئا بالحلوى ، وأخذ يوزعه بيننا بالتساوي وهو يربت على ظهورنا برقة وعطف وحنان .

واسرعت لاروي ماحدث لوالدي وقلت له : ان الشيخ كامل لم يضربنا بعصاه اليوم كعادته التي الفناها من قبل والتي لم يتخلف عن ممارستها في يوم من ايامه ، وتراه نسي أن يفعل ذلك يا أبي.. فضحك والدي وقال ان سيدنا الشيخ كامل مبروك ، نال ما كان يتمناه فقد رزقه الله مولودا ، ذكرا مع غرة هذا الصباح ، وارجو ان يصرفه ذلك عن استعمال عصاه بعد اليوم.

عمر يحيى
المربي والشاعر والإنسان

بقلم : فريد جحا

— ١ —

ذلك اليوم الثاني والعشرون من شهر شباط من عام ١٩٧٩ ،لا ينسى ، كانت عاصفة هائجة فيه تضرب العاصمة الفرنسية وكانت السماء تساقط الثلج غزيرا فتكسي منه باريس رداء ابيض حلوا ، وتنخفض درجة الحرارة بسبب من هذا وتلك الى درجات بلغت عشرا تحت الصفر ، فاضطر اكثر الناس الى اللجوء الى بيوتهم مع هبوط الظلام ، ليتقوا شر العاصفة ، وليلتمسوا فيها الدفء والحنان والرعاية .

كان برنامج زيارتي للمؤسسات والمدارس الفرنسية في ذلك اليوم حافلا ، فاضطررت الى الاقتصار منه على زيارة احدى دور النشر حيث سعدت بما تعرفت اليه من وجوه نشاطها ثم قصدت فندقي الباريسي مع هبوط الظلام ،لأتقي بردا لم نعهده ، ولأقضي شطر الليل مع كتاب (تاريخ دمشق) لابن عساكر تمهيدا لاعداد بحث اشارك فيه في مهرجان هذا العلامة الدمشقي الكبير بعد شهرين .

دلفت الى الفندق بعد ان نفضت عن منكبي ماعلاهما من ثلج ، وسعدت بالدفء الذي لفح وجهي بعد ان غلقت الباب ورائي ، مد رب الفندق يده بمفتاح غرفتي ومعه رسالة ، تمليت كتابتها فتعرفت فيها الى خط استاذي (جان غولميه) وكان ذلك امرا عجيبا ،رسالة من جان غولميه ، وكنت عنده قبل ثلاثة أيام ؟

لا بد ان امرا هاما ، قد حدث ، فدفعه الى كتابة هذه الرسالة .

فتحت المغلف بينما كان المصعد يرقى بي الى غرفتي ، وتلوت في الرسالة ما ترجمته :

باريس في ١٩٧٩/٢/٢١م

((أيها الصديق العزيز

انا حزين ، حزين ، حزين ، ولا اجد اليوم من أذرف دمومي بين يديه .

لقد وصلتني اليوم من صديقي فخري الكيلاني رسالة ينعي فيها صديقنا الشاعر الكبير ، والمربي القدير عمر يحيى ، كان النبأ بالنسبة لي صاعقا ، على الرغم من انني اعرف أنه مريض ، فيا للقدر ، ما أقساه ، ويالقلوبنا ما أوسع آمالها عندما يتصل الامر بمن نحب وها هو ذا يصفعنا ، ويقلب تفاؤلنا الى تشاؤم ، ويضرب فجأة اعز الاصدقاء ليحمله معه الى العالم الاخر .

لم يكن عمر يحيى الشاعر العربي الكبير ، والاستاذ المربي القدير فحسب، بل كان ، بالنسبة لي ، الصديق الكريم ، والزميل العزيز ، ورفيق الشباب البعيد ، فلقد تزاملنا في تجهيز حلب الاولى ، عشر سنوات عرفت فيها قلبه الكبير ، وعقله النير ، وثقافته الموسوعية ، وحسه المرهف ، وشعره المجلي ، وانها لمناسبة افيد منها لأشكرك الشكر الجزيل لانك يسرت أمر زيارتي له ، منذ شهرين ، زيارة أبقت في قلبي صورة لوجهه المشرق لا احلى منها ولا أنقى)) .

— ٢ —

تضم هذه الرسالة عاطفة مشبوبة قلما يشعر بها الغربي ، ولكنها معروفة

عن استاذنا جان غولميه ، الذي يمتاز بخصال كثيرة ، أهمها الوفاء والحساسية ، والقلب الكبير الذي ينبض حبا وحنانا ، وتضم بالاضافة الى ذلك تقويما جيدا لعمر يحيى ، وتبيانا لمكانته شاعرا ومربيا وانسانا . وتذكر بزيارة قمنا بها معا لابي طريف يوم العشرين من كانون الاول من عام ١٩٧٨ ، في بيته من شارع اسكندرون بحلب ، حيث اجتمع الصديقان بعد فراق استمر عشرين عاما ، فتعانقا اجمل العناق واحره ، وتذاكرا ايام الصبا البعيدة قبل خمسين عاما ، وودع كل منهما صديقه ، على امل بلقاء قريب لم يتم .

واحسرتاه ، لان المرض لم يمهل عمر يحيى بعد هذه الزيارة اكثر من خمسين يوما ، اذ انه توفي ، رحمه الله في حماه يوم الرابع عشر من شباط من عام ١٩٧٩م .

روى لي الاصدقاء ان جنازته كانت حافلة ، مشى فيها من اصدقائه وتلاميذه وعارفي فضله الكثيرون ، ونعته في تلك الايام الصحف جميعا ، والاذاعة كذلك ، فنحن نعيش منذ عام ١٩٧٠ ، جو الحركة التصحيحية المجيدة التي قاد الرئيس المناضل حافظ الاسد ، وارسى بها دعائم كثيرة لعل من أهمها تكريم المبدعين والمخلصين ، والذين قدموا خيرا في تاريخ أمتهم ، وكان عمر يحيى مبدعا في شعره وفي تعليمه ، مخلصا في عمله وفي سلوكه ، لذلك كان أثره ، فيمن ربى من اجيال كبيرا ، ومكانته في أدبنا العربي الحديث المكانة التي يشار اليها بالبنان .

— ٣ —

عرفت استاذنا عمر يحيى ، أجزل الله ثوابه ، منذ ما يقرب من نصف قرن ، وعلى وجه الدقة في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٤٠ ، كان قد اوكل اليه في تلك السنة امر تدريس صفنا ، الذي كان يسمى الصف السادس (الاول من المرحلة الاعدادية اليوم) ، قسما من حصص مادة اللغة العربية يشمل الاستظهار والقواعد .

ودخل علينا في يوم خريفي بارد وفي الحصة الاولى ، سمهري القامة كرمح عربي ، أقنى الانف كبدوي من الصحراء ، أشعث الشعر كأسد ، عابس الوجه كسماء ذلكم اليوم ..

ينظرا الينا بامعان لمدة دقيقة ، حتى اذا ما تأكد من انتظام الامور ، والصمت الذي ران على الصف طلب الينا بحده ان نجلس .

تناول حواره كسرها نصفين ، وارخ لليوم بالتاريخ الهجري ، ثم كتب في وسط السبورة :
" أبيات لعمر بن معد يكرب الزبيدي " ، والتفت الينا ، وأنشد بنبرة خلوة ، والقاء بديع قصيدة الزبيدي التي لاتزال راية مرفرفة في سماء ادبنا العربي في مختلف عصوره ، أنشدها كلها بتأن وروية وتؤدة ، وكان يضغط على كل حرف ، في كل كلمة فيها ، وعلى حرف الدال ، روى القصيدة بشكل خاص .. ولا أزال اذكر ، حتى اليوم ، صورته الحلوة ، ووقفته البارعة ، وانشاده الجميل لهذه الابيات أذكر ذلك ولا انساه ، ولن أنساه ، لما في الابيات من حلاوة تعلوها طلاوة ، وغزل محب محبب ، وكبر عربي أصيل ، وتغن بالشجاعة التي هي أرفع مزايا العربي .

ليس الجمال بمئزر
فاعلم وان رديت بردا
ان الجمال معادن
ومناقب اورثن مجدا
أعددت للحدثان سا
بغة وعداء علندى
نهدا ذا شطب يقد البيض والابدان قدا
وعلمت اني يوم ذاك منازل كعبا ونهدا
قوم اذا لبسوا الحديد تنمروا حلقا وقدا

كل امرئ يجري الى
يوم الهياج بما استعدا
لما رأيت نساءنا
يفحصن بالمعزاء شدا
وبدت لميس كأنها
بدر السماء اذا تبدى
وبدت محاسنها التي
تخفى وكأن الامر جدا
نازلت كبشهم ولم
أر من نزال الكبش بدا
هم ينذرون دمي وانذر ان لقيت بان اشدا

كم من اخ لي صالح
بوأته بيدي لحدا
ما ان جزعت ولا هلعت ولا برد بكاي زندا

ألبسته أثوابه
وخلقت يوم خلقت جلدا

أغني غناء الذاهبين اعد للاعداء عدا
ذهب الذين احبهم وبقيت مثل السيف فردا

حتى اذا ما انتهى من تغنيه بهذه الابيات قدم لنا باسلوب جميل مبسط معانيها ، وشرح لنا كلماتها الغريبة وسجلها على السبورة ، ثم عاد فأملاها علينا ، وطلب الينا ، والجرس يقرع ايذانا بانتهاء الحصة ان نستظهرها كلها الى مثل ذلك اليوم من الاسبوع القادم .

لم يفتنا ثقل الواجب الذي القاه على كواهلنا ، فنحن لم نتعود من قبل سوى استظهار الابيات الخمسة من كل قصيدة وهذه سبعة عشر بيتا .. الا ان الجو الذي وضعها فيه استاذنا الكبير ، وما تحمل الابيات نفسها من سهولة واناقة في اللفظ ، وسمو وروعة في المعنى ، دفعنا الى استظهارها كلها ، والى الاعجاب بها ، والى بقائها في ذاكرتنا حتى اليوم .. ثم الى الاعجاب بهذا المعلم الذي نراه لاول مرة ، فنراه على ما عهدناه دائما ، يكاد يستظهر ديوان الشعر العربي كله .

ويلقي الشعر اجود القاء فكأنما يتغناه ، فضلا عن احترام مشوب بالرهبة يزرعه في نفوس طلابه ، وزرع لأطيب القيم العربية ، وأحلى الكلام العربي في عقول طلابه ، وقلوبهم ، وضمائرهم .
وعجبا ، وكنا في الثانية عشرة من العمر ، لمثل هذا الشعر يدرس لطلاب في اوائل المرحلة الثانوية ، ولاختيار استاذنا لقصيدة جاهلية يفتتح بها عامه الدراسي ذاك .. وعندما تقدم بي العمر ، وفهمت عن الدنيا اشياء واشياء ، وتذكرت الايام التي املى فيها عمر يحيى علينا ابيات عمرو بن معد يكرب هذه ، وتذكرت خاصة الجو السياسي الذي كان قطرنا يعيشه ، والحرب العالمية الاولى التي كانت قد بدأت منذ شهرين .. عندما تذكرت ذلك فهمت الاسباب التي حدت بأبي طريف الى اختيار هذه الابيات واملائها علينا ، ثم طلبه الينا ان نستظهرها .

كانت سورية في تلك الايام تحت الانتداب الفرنسي الذي ران بكلكله عليها ، ذلك الانتداب الغبي (١) الذي سلم لواء الاسكندرونة الى الاتراك ضاربا عرض الحائط بمهمة الاحتفاظ على التراب العربي التي اوكلتها اليها عصبة الامم ، ورفض استكمال اجراءات التصديق على معاهدة عام ١٩٣٦ ، مما دفع برئيس الجمهورية السورية انذاك الى الاستقالة ، فرد الفرنسيون على ذلك بحل مجلس النواب ، واعلان الاحكام العرفية وتعيين حكومة من عملائهم اداروا بها البلاد بصورة مباشرة .

كان عمر يحيى في تدريسه لنا هذه الابيات القديمة الجديدة والتي تتفجر عروبة وكبرا وجمالا ..

كأنه بذلك يرد على هذا الجو من الفكر السياسي الذي يحيط بنا ، انها وقفة المجد العربية في وجه الصعاب ، الوقفة التي لا تركع ، ولا تستخذي ، بل تقول للدنيا ، عربا كنا ونبقى عربا ، وتنشد مع عمرو بن معد يكرب ابياته وفيها : ان الجمال اخلاق كريمة واعداد ليوم الملحمة ، وقراع الاعداء اقوى ما يكون القراع ، ومنازلة الاقران في ميدان الوغى ، والدفاع عن الحمى ، احسن ما يكون الدفاع ، فلا خوف ولا جزع ولا ارتداد ، بل نزال وصبر وقتال ، وقلب كبير يجمع الانفة والشجاعة والحب، حب لميس التي تبدو كبدر السماء اذا تبدى .

عرفت عمر يحيى ، ابا طريف ، منذ تلك الايام ، كنت القاه في سنوات دراستي الثانوية السبع عن بعد ، ثم أتيح لي اخيرا ان ادرس عليه الادب العربي في السنة النهائية ، وكان ذلك في عام ١٩٤٥ — ١٩٤٦ الدراسي .. وكان عاما خصبا ، عشنا فيه مع استاذنا ومع الادب العربي ، من بداية العصر العباسي الى نهاية العصر الحديث .. وهنا كان مجاله الارحب ، وهنا كان له القدح المعلى ، وكانت سعادتنا ، نحن عشاق الادب ، لا توصف وفائدتنا ، نحن طلاب الفرع الادبي اكبر من ان تثمن ، كان عاما خصبا ، حفظنا فيه الاف الابيات وقرأنا فيه مئات المصادر ، وبنينا فأحسنا البناء ، وانتهى بنا العام ذاك الى ذخيرة من النصوص الادبية لا أغلى ولا اثمن منها ، والى ثروة من المعارف النقدية لا اغنى منها ولا ارفع .

وعرفنا فيما بعد ان عمر يحيى لم يكن استاذا ناجحا فحسب ، ولامتذوقا للادب يجيد التذوق ولا حافظا متقننا

للشعر العربي فقط ، بل هو الى ذلك شاعر كبير .. استمعنا اليه في احتفال أقيم في المدرسة ، بذكرى شهداء ايار وكان ذلك في عام ١٩٤٤ ، الشهداء العظام الذين يقول فيهم :

في سبيل العلياء والحق ركب
ما استطابوا العيش الخفيض المذلا
شهداء الاوطان ماتوا ليحيوا
في قلوب الابناء كهلا وطفلا
ذكرتهم أوطانهم في شجاها
ودعتهم فأخلصوا الحب قبلا
ومراد الاوطان اعظم من ان
تدعي الحب ان تحاذر قتلا
شهد الله ان ذكرى رداهم
في حنايا الضلوع هيهات يبلى
أورثوا المجد حسرة حين باتوا
عن حماهم واستوطنوا الخلد ظلا

واستمعنا اليه يرثي استاذنا انور الطرابلسي الذي اغتاله جندي احتلال اوسترالي غدرا :

يا للشباب الحزين من نفحة
رأيته وهو غارق بدمه
مبتسم والدموع جارية
ذوب قلوب شكت مدى ألمه
يهزأ بالدهر في تعاظمه
الم ترعك ابتسامة بفمه ؟
تلك الاماني ما كان أنضرها
يلقى صداها عليه وفي نغمه
تلك الرؤى يا للفجيعة في
شرخ الصبا حالت الى عدمه
يا حسرة لا يكاد يحملها
قلب يقاسي السهاد من ضرمه

واستمعنا اليه يتغنى بالجلاء ، مساء السابع عشر من نيسان من عام ١٩٤٦ مساء اليوم نفسه الذي خلت منه الديار من كل اجنبي دخيل ..

شق جيب الليل عن بيض الاماني.
فاخفقي يا رايتي بين المغاني
واشمخي فوق السهاد رفافة
انه صبح سرى سامي المعاني
أشرق الحق على مفرقه
هالة النار وتخليد الزمان
ومشى نيسان في موكبه
باسم الثغر يغنيه التهاني
بهجة الفجر وألحان الضحى
ونشيد المجد يسمو باتزان
وصلاح الدين في جحفله
عارض الرمح على ظهر الحصان
يلمح التاريخ في نظرته
بسمة الظافر في الحرب العوان
سقط الباغي على أقدامه
دامي الجرح سقوط الافعوان

هذه الروض ارتدت سندسها
وغدا الورد نجي الاقحوان
يا رياضا طيب رياها غدا
وتر الفن وترجيع البيان
ترقص الاحلام في ظل الهوى
وتعاطي شربها خمر الدنان
غمغمات من غرام ورؤى ..
ساحرات نفحات من حسان
الحمى جن بأعراس العلى
والمنى افترت سرورا عن جمان
مهرجان رفرفت راياته
أين من الحانه عزف القيان ؟
بسم الدهر له وابتسمت
امه ثكلى برد الصولجان

فعمر يحيى شاعر كبير ، اجتمع في شعره صفات الشعر العربي الجيد في العصر الحديث .
عاطفة متأججة تعبر عن نفسها باسلوب طلي في ميادين الوصف والغزل والحكمة وبأسلوب قوي جذل رأيناه منذ قليل فيما قرأنا من ابيات الشعر القومي ..
ونستمع اليه يقول في عاشق الورد :

عاشق الورد قام في أفنانه
يتغنى بالعذب من الحانه
نسمات الاسحار تحمل عنه
نفحات الهوى الى وسنانه
وعيون النوار ترنو اليه
مخضلات بالدمع من أشجانه
مصغيات ترف شوقا ووجدا
كلما جد ممعنا في افتتانه
وجمال الربيع يصبي قلوبا
طالما تدثرت بطيب زمانه
بعد نوم الشتاء يخلع زهر الروض
عنه المنام عن أجفانه
وعلى السهل روعة الحس والحس
ن يقيم الجمال في اركانه
تلك شمس الضحى تجر ذيولا
فتعلل بوارفات الاماني
من جمال الى جمال فخل اليأس
واجنح الى مراد الحسان
كل عيناء تستثير منى القلب
وتحيي كوامن الانسان

ونقرأ من رسالة الورد اليها :

اذهبي يا وردة الروض البهية
واحملي مني ما اشكو اليها
من أخلت بعهودي وازدهت
بشباب ذابل بين يديها
يا لها حلما جميلا كلما
لاح خذ الفجر ابكاني عليها
واذا النجم تبدى موهنا
خلتني انظر فيه مقلتيها
ذاك عهد قد مضى أذكره
والاماني تزدهي في شفتيها

وعمر يحيى من مواليد عام ١٨٩٩ م من مدينة حماه ، وفيها تلقى علومه الابتدائية ثم اتمها في المدرسة الصلاحية في القدس ، الا ان الكتاب مدرسة ابي طريف الاولى ، فلقد كان قارئا نهما ، لا تراه الا وفي يمينه كتاب يطالع فيه اينما حط به المسير حتى ليعرف شخصه من هذه الحلة (٢) .. وكان يلم باللغات التركية والفارسية والافرنسية ، وقد عرب عنها بعض المقطوعات نثرا وشعرا .(٣)

درس في مدارس القطر في ظل الانتداب ، ثم ارتحل الى البحرين فدرس في مدارسها فترة من الوقت الا ان المستعمرين الانكليز خافوا على الناشئة مما يعلمهم اياه فنفوه الى الهند في عام ١٩٣٠ ، وقد اشار الى ذلك في قصيدة مشهورة قال فيها :

ارض تفيأها الوفاء فحسبها
فخرا لو ان شيوخها حكامها
أين العروبة والاباء يظلها ؟
يوم الكريهة رتعا آرامها
لم يبق منها غير رسم دارس
رفت على ارجائه الامها

قالوا الى الهند المسير فأنتم
غرباء في البحرين لا ارحامها
مرحى وأما الانكليز فانهم
أهل البلاد واهلها ايتامها
الواغلون الشاربون دماءها
الغاصبون لها وهم هدامها
والارض ان نام الحماة يكون من
حظ الذئاب العاملات سوامها
ضاق المغير بأن نهيب بشعبها
ويود ان لو لم يفق نوامها
ورأى بنا ظمأ الى ايقاظها
من نومها فأمضه اقدامها

ثم عاد من المنفى ، فدرس حينا في حماه ، ثم في تجهيز حلب الاولى بين عامي ١٩٣٥ - ١٩٤٩ عين بعدها مديرا لهذه الثانوية (تموز ١٩٤٩) فمديرا لمعارف حماه بدءا من عام ١٩٥٠ ثم مديرا لمعارف حمص ، وفيها احيل على التقاعد في عام ١٩٦٢ ، الا انه اتم مهمته التعليمية مدرسا للادب العربي في ثانوية الاخوة المريميين الى عام ١٩٦٦ ، تفرغ بعدها لتدريس مادة النحو العربي بقسم اللغة العربية من كلية الاداب والعلوم الانسانية ، الى ان اقعدته الشيخوخة عن العمل بدءا من عام ١٩٧٤ حين امضى السنوات الاخيرة من حياته مكبا على المطالعة وعلى استقبال تلاميذه وطلابه ، والاجتماع بالخاصة منهم في جلسة اسبوعية كانوا يقرؤون فيها ، عليه ومعه ، احد الكتب القديمة .

في العاشر من شباط ١٩٧٩ ، اشتد عليه المرض ، فحمل الى مشفى جامعة حلب ، ومنه نقل الى مدينة حماه التي توفاه الله فيها يوم الرابع عشر من ذلك الشهر .

كانت المدينة هذه ، قد كرمته التكريم اللائق في شتاء عام ١٩٧٨ ، .. فأقيم له مهرجان تحدث فيه الكتاب والقى الشعراء ابحاثا وقصائد تناولت جوانب الابداع فيه ..

كما اقامت له كلية الاداب في جامعة حلب حفل تأبين كبير ، مساء الرابع عشر من نيسان عام ١٩٧٩ ، وقد اشاد الذين اسهموا في تلك الامسية بمزايا الفقيد مربيا وشاعرا وانسانا..

- ٦ -

نشر عمر يحيى بعض الابحاث الادبية في المجلات ونشر شعرا كثيرا في الصحف وفي المجلات الادبية السورية واللبنانية واصدر ديوان شعره الاول (البراعم) في عام ١٩٣٦ ، ثم جمع ما تناثر من شعره ، وقدمه لوزارة الثقافة التي تبنت امر نشره في جزئين ، صدر اولهما في عام ١٩٨٠ ، ولا يزال القراء ينتظرون جزأه الثاني ، وينتظر ان يكونا في حوالي ثمانمئة صفحة من القطع المتوسط.

وذكر ان له مجموعة تراجم ومقالات وكتاب اللحية ، ومجموعة محاضرات ورحلات ، وكتاب تبسيط العروض ، وكتاب بين

في النحو والاملاء ، ومجموعة من القصائد المترجمة لشعراء فرنسيين واتراك وفرس (٤).

- ٧ -

وماذا يبقى من عمر يحيى ولعمر يحيى ؟

يبقى منه ديوانه وهو يستحق دراسة خاصة نعد بان نعود اليها والجانب الانساني الذي عرفه اصدقاؤه وطلابه ، ثم ما غرس في نفوس طلابه من حب للتراث وللشعر منه خاصة ، وتذوق لجيد القول، وهذا الوجدان الحي الذي بدأ به عمله المهني مدرسا حي الضمير ، وعاش معه طوال سنوات تعليمه ، لم ينقص بل كان يزداد مع مرور الايام ، وان انسى لا انسى حرصه على ان نكتب الوظائف ، وقيامه بتصحيحها بنفسه التصحيح الدقيق الواعي ولا ازال احتفظ بوظيفة كتبتها عن ابي تمام في اربعين صفحة من القطع الكبير شرحا لقول آدبي فيه (واما الطائي حبيب ، فمتكلف الا انه يصيب، ومتعب لكن له من الراحة نصيب ، شغله المطابقة والتجنيس ، جيد ذلك اوبيس مدحه ورثاؤه ، لا غزله وهجاؤه) اجل وظيفة في اربعين صفحة ، قرأهابنفسه وابدى رأيه في كل كلمة فيها .

واهم من ذلك عروبة في الخلق تحمل نفسا كبيرة تأبى الذل ، واعجاب بماضي العرب وتراثهم ، وايمان صحيح بأن الشعر ديوان العرب .

لقد عاش كبيرا ومات كبيرا، وترك بعده من الاثر ما يتمناه كل معلم ،وكل شاعر وكل عربي .

هوامش :

---

(١) - التسمية لاستاذنا جان غولميه في مقدمة روايته الاخيرة الصادرة في صيف العام الماضي ١٩٨٦ بالفرنسية .

(٢) - قدري العمر ، مقدمة الديوان طبعة وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٠ ص هـ

(٣) - سامي الكيالي ، الادب العربي المعاصر في سورية ، القاهرة ١٩٦٨ ص : ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٤) - سامي الكيالي ،المصدر السابق، ص ٣٤١ - ٣٤٢

(٥) - لابن شرف القيرواني في رسائل الانتقاد .

سلمية

شعر: خضر عكاري

سلميه .. الغافيه..
بين البحر والبادية ..
تغرد .. جدائلها للريح ..
تتنهد
تتململ
أقدامها الحافيه ..
في نزق الرمال ،

*   *

فينيقية الارداف
تتهيب طلعة الامواج
وشوشة النوارس
روعة .. الفداء ..
يا آسف الزمان ..
معصوبة العينين ،
/ رمدانة / .. ؟

*   *

تنام على جراحها ..،
تصحو .. على نزيفها ،
تتأفف من تأوهات المطر ..
واختناق الثلج بين هضابها
مزروعة بالحنطة والامل والمواسم..
أحلامها .. خائفة
من يقظة الصقيع
صولة .. الجفاف
لعنة .. الجراد ..
ثغاء الماعز ..
احتباس الفرح ..
ولهفة اطفالها المشرورين
فوق الدروب الساخنة..

*   *

سلميه
/ تمرمش / وجهها المشوي
من لفح تموز ..
قلبها .. تائه ،هيمان
يستوطن المحل عروقها ..
يسكنها .. القهر
يابسة تنورتها العشبية
تتناوق من أكتافها الفصول
أرملة.. / شرشحتها / الذكريات ..
تقلب اوراق التاريخ
كما .. يقلب المحقق
أوراق متهم .. عريق ؟

*   *

سنابلها كابية بين أغمارها ..
يفرطها النمل،
يجرجرها.. مدماة على الحصى ..
كما .. تجرجر فاجرة .. ،
تخرب زينتها ..
في ليلة .. عامرة
بالفرح والانين ..؟
/ يقرط / صدرها الحنون المندى ..
بحبق الحواكير
عبق البابونج ،
والنعناع والزعتر والشيح ،

وتأوهات البيلسان ،
وروعة .. الارجوان
تنحنح .. الزيزفون ؟ ..

* *

سلميه ..
تخاف من عاديات الدهر / جفلانة / ..؟
تحتضن المرارة ..
تدغدغها السيول
تمازحها رياح الشمال
/ تنعس / على وسادتها الهموم ..
عنابرها .. تتضرع ،
تتوسل ، " فالق النوى " ؟

* *

سلميه ..
/ حردانة / .. بيادرها
ضحكة .. قنواتها ،
غمزة .. حقولها ،
تدفق .. حواصلها ،
بالحنطة والزبيب –

* *

متى تعود .. نضارة الحياة ..
أغنية السنونو ؟
ويزهر .. العز
في قمات جبالها ..
المسيجة بالهمم ..؟

* *

سلميه ..
قصيدة .. ملفلفة ..
بالحزن .. والغبار ..
يحوفها .. الخطر ..
كزخة .. المطر ..
تلملم .. أطرافها المهاجرة ..
تشعل موقد شموخها ..
تنمنم .. الحكايات
تطرز .. المواويل ..
وعلى .. ركبتيها المتورمتين ..
تغفو .. الزغاليل ،
حالمة .. بعطاءات الفصول
تلبس / مزوية / الحياة
وقمبازا .. من الصهيل ..

* *

سلميه .. المزار ..
في هودج الايام ..
مشنشلة بالامنيات
لكن ..
يا أسف الزمان
شاردة .. في عطش المكان ..
/ ينوشها / الغبار ..

* *

سلمية * : مدينة الشاعر

تسمية الكوميديا الالهية

دانتي ١٢٦٥ - ١٣٢١

الياس سعد غالي

أهدى دانتي كانكر اندي دلّا سكالا الجزء الثالث من منظومته الخالدة " الفردوس " برسالة طويلة جاء فيها : " هنا تبدأ كوميديا دانتي اليغييري الفلورنس الاصل لا الاخلاق " (١) ولا خلاف على هذه التسمية فيما بين المؤرخين والباحثين . انما خلافهم يدور حول ظهور عنوان هذه المنظومة المشهور اليوم ب " الكوميديا الالهية "

فما العنوان الذي اختاره دانتي لهذه المنظومة ؟ لقد كانت كلمة كوميديا تعني عند الاغريق : أغنية بلغة العامة يتغنون بها وتجري على اللسان من غير تكلف ولا تصنع (٢) . وقيل ان الكوميديا تكتب بانشاء وسط ودون الوسط طالما ان دانتي نفسه قد سمى ملحمة الالياذة لفرجيل تراجيديا اي مأساة لان المأساة ، في نظره تكتب بانشاء راق (٣) .وقيل ان لا شأن للكوميديا هنا بالمسرح انما ترمز الى نهايتها السعيدة فموضوعها رحلة الى العالم الاخر ، الى الجنة عبر الجحيم والمطهر ، وقيل لقد اقتضت هذه التسمية نوعية هذه القصيدة التي بدأت بالابتئاس وانتهت نهاية سعيدة (١/٣) اما دانتي فقد سمى منظومته " كوميديا " فقط (٤) في رسالته الى كانكراندي دلا سكالا ، وفي الجحيم (٤) وسماها ايضا : القصيدة المقدسة التي مدت لها يدا السماء والارض وانحفت جسمه سنوات طويلة (٥) .

اما نعت هذه الكوميديا " بالالهية " فقد اهتم له بعض الباحثين الغربيين ، والى القارئ اهم ما توصلنا الى معرفته :

لقد روى الناشر بول برودار في مقدمة ترجمة الكوميديا الالهية الفرنسية لارتو دو مونتور (٦) ان اول طبعة لكوميديا دانتي نشرت في أملاك الكنيسة في فولينيو في الشهر الرابع من عام ١٤٧٢ بعنوان " كوميديا دانتي الليغييري من فلورنسا

وفي عام ١٥١٢ نشرت في البندقية طبعتها الرابعة والعشرون بعنوان:

وفي عام ١٥١٦ ظهرت طبعتها التاسعة والعشرون وهي تحمل عنوانها النهائي المشهور به حتى يومنا هذا " الكوميديا الالهية (١و٢) وقد نشرت في البندقية ايضا عام ١٧٥٧ طبعة جديدة تحتوي على اغرب مجموعة رسوم واهديت الى امبرطورة

روسيا اليزابيت بيتروفنا بعنوان الكوميديا الالهية لدانتي .

والنعت " الالهية " الذي اضيف الى العنوان الاصلي اوحى به فيما بعد القراء والناشرون اما بالنظر الى قداسة موضوع هذه الملحمة وسمو جمالها واما بالنظر الى فقدان مثيل لصفتها بترغيب من بوكاس ، وقيل ان بوكاس هو اول من وصف الكوميديا بالالهية فعرفت منذئذ في الغرب بهذا العنوان (٨)

وفي عالمنا العربي تحير ادباؤنا وكتابنا العرب في تسمية " كوميديا " دانتي باللغة العربية ، ولهذا اطلقوا عليها أكثر من خمسة عشر اسما سنشير اليها لا على سبيل الحصر . قد يكون الدكتور مصطفى صالح اول من ذكر في مجلة جيش الشعب الدمشقية ان عبد الرحيم احمد اول عربي قدم كلمة امام اعضاء مؤتمر المستشرقين المنعقد في باريس ما بين ٥ و ١٢ ايلول ١٨٩٧ ، اشار فيها الى حصوله على مخطوط من رسالة الغفران وقال عنها : انها مؤلف ثلاثي يشبه تقريبا مؤلف " دانتي " (٩) . وكرر الدكتور صالح هذا القول في مقال له بالفرنسية ظهر في نشرة المعهد الفرنسي بدمشق (١٠) ، لكنه أغفله في كتابه " كشاف مصادر دراسة ابي العلاء المعري (١١) مرة وعاد وذكره في هذا الكتاب (١٢) كما ورد في مقاله الاول في مجلة جيش الشعب (١) حيث جاء ايضا قوله : وهكذا لم نجد من تكلم عنها (اي رسالة الغفران) في اوروبا قبل " المصادر الشعرية للكوميديا الالهية (١٣) ولم يذكرها دانكونا ولا بلوشيه في كتابه " المصادر الشرقية للكوميديا الالهية " .

وفي عام ١٩٠٤ ظهرت ترجمة سليمان البستاني لالياذة هوميروس الذي قال في مقدمتها : " ان من احسن ملاحم المولدين ملحمة نثرية الا وهي رسالة الغفران لابي العلاء المعري جمع فيها صاحبها شتيت المعاني ، واوغل في التصور حتى سبق ملتن الانكليزي ، ودانتي الشاعر الايطالي الى بعض تخيلاتهما (١٤) ، لكنه لم يذكر كوميديا دانتي بأي اسم .

وفي عام ١٩٠٧ قارب جرجي زيدان بين رسالة الغفران وماكتبه دانتي فقال : ان ابا العلاء تخيل رجلا صعد الى السماء ووصف ما شاهده هناك كما فعل دانتي شاعر الطليان في روايته المسماة " الرواية

الالهية " وملتن الانكليزي في ضياع الفردوس . لكن ابا العلاء سبقهما ببضعة قرون فلا بدع اذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه (١٥)

وللمستشرق غولد تسيهر (جلد زهير) رأي استشهد به كامل كيلاني يعود الى عام ١٩١٠ جاء فيه : ان سفر (رسالة الغفران) لايقل عن ان يوصف بانه " غاية متقنة " او انضاج لفكرة " الكوميديا الالهية " (١٦) ويبدو من التسلسل التاريخي ان غولدتسهير اول مستشرق اوروبي قرن رسالة الغفران بالكوميديا الالهية والثالث بعد عبد الرحيم احمد وجرجي زيدان من العرب (١٧)

وفي عام ١٩١٤ قدم الدكتور طه حسين افضل كتاب علمي عن ابي العلاء الى الجامعة ونشره عام ١٩١٥ وقد قال في مقدمة طبعته الثانية انه يعيد نشر هذا الكتاب في سنة ١٩٢٢ على صورته في سنة ١٩١٤، لا مغيرا ولا مبدلا .
وقال في الصفحة ٢٣٩ منه :"الفرنج يشبهونها (رسالة الغفران) بكتاب دانتي الطلياني الذي سماه

وكتاب ملتن الانكليزي الذي سماه " الجنة الضائعة " (١٨) وقال الدكتور طه حسين في مقدمة الجزء الاول من رسالة الغفران طبعة الكيلاني الثانية : شبهها (رسالة الغفران) قوم بحديث دانتي وربما وفقوا في هذا التشبيه ، وزعم قوم ان " دانت " تأثر بها في حديثه ولعلهم قاربوا الصواب في هذا الزعم ولكن هذا كله لا يعنيني الان وانما يعنيني حين اضع كتابا خاصا لدرس هذه الرسالة درسا علميا ، كل هذا لا يعنيني الان(١٩)

لكن هذا الكتاب الذي وعد به الدكتور طه حسين قراءه ما رأى النور لسوء حظ الادب (وكرر الدكتور طه حسين قوله :" الفرنج يشبهون رسالة الغفران بكتاب دانتي الطلياني الذي سماه :

(٢٠) .
ولو قرأ الدكتور طه حسين كتاب دانتي او حديثه كما وصفه ، لما كان قال ان دانتي سماه :

بالفرنسية ولما كان تركه بلا ترجمة اكثر من مرة ، في حين انه ترجم على الاثر الى العربية اسم كتاب ملتن (الجنة الضائعة) .
وترجم عبود ابو راشد عام ١٩٢٦" لاديفينا كوميديا " للشاعر الايطالي دانتي اليغييري الى العربية بعنوان : " الرحلة الدانتية في الممالك الالهية (٢١) .

وقال عبد العزيز الميمني الراجكوتي في مقدمة رسالة الملائكة لابي العلاء المعري التي الحقها بكتابه " ابوالعلاء وما اليه (١٣٤٥ / ١٩٢٦): وماملتون الانكليزي صاحب الفردوس الغابر الا من اتباع " ابي العلاء في رسالة الغفران وزاد في الحاشية (١٩) ومثله شاعر الطليان دانتي في كتابه : جهنم (١٩/٢٣)
وقد سمى " قصيدة دانتي "محمد كرد علي : رواية دانتي ، الرواية الالهية ، المهزلة الالهية (٢٣)

١٩٢٧ قسطاكي الحمصي : قصيدة ، الالعوبة ، الالعوبة الالهية (٢٤)

١٩٧٢ عبد الكريم اليافي :ملهاة (٢٥)

١٩٧٢ حسام الخطيب : ملهاة دانتي الملهاة الالهية (٢٦)
١٩٨٤ اغناطيوس سعادة : الملهاة الالهية (٢٧)
١٩٣٢ ناشد سيفين : قصيدة دانتي الكبرى ، الكوميديا الالهية (٢٨)
١٩٦٤ محمد بدران : المسلاة الالهية (٢٩)
١٩٣٨ امين ابو شعر : جحيم دانتي الاغنية الخالدة الالهية ،الكوميديا الالهية (٣٠)
١٩٤٤ محمد مندور : كوميديا دانتي ، الكوميديا الالهية (٣١)
١٩٣٥ كامل كيلاني : الكوميديا الالهية (٣٢)
١٩٢٨ عبد اللطيف الطيباوي : الكوميديا الالهية ،الالعوبة (٣٣)
١٩٥٦ مصطفى ال عيال : الكوميدية الكوميديا الالهية (٣٤)
١٩٣٦ دريني خشبة : الكوميديا الالهية (٣٥)
١٩٢٥ عبد الرحمن صدقي : الكوميديا الالهية (٣٥)
١٩٤٤ عمر فروخ / الكوميديا الالهية (٣٦)
١٩٥٤ بنت الشاطىء : الكوميديا الالهية (٣٧)
١٩٥٩ و ١٩٦٤ و ١٩٦٩ حسن عثمان : الكوميديا الالهية (٣٨)
١٩٦٧ ابراهيم المويلحي : الكوميديا الالهية (٣٩)

لم يشر الى مشكلة صفة " الالهية " التي اضيفت الى الكوميديا من الادباء العرب ، في حد علمي ، سوى الد . حسام الخطيب ومصطفى ال عيال وابراهيم المويلحي ، فحسام الخطيب قال : سمى دانتي قصيدته الطويلة "ملهاة دانتي اليغييري المنتسب الى فلورنسا بالمولد لا بالشخصية . وفيما بعد اضيفت صفة " الالهية " على الملهاة نظرا لقداسة موضوعها من جهة وسمو جمالها من جهة اخرى (٤٠) ، وقال مصطفى آل عيال : اول من اطلق على الكوميديا لقب " الالهية " كاتب معروف عاصر دانتي ، صديقه بوكاشيو (٣٣) .
اما الاستاذ ابراهيم المويلحي فقد ابدى رأيا طريفا وهاما في هذا الوصف تجدر الاشارة اليه بل التوقف عنده ..
قال الاستاذ ابراهيم المويلحي في مقاله (٤١) : " ان وصف الالهية لا يرجع الى رؤية دانتي لله في السموات وانما هي صفة تخلع مجازا في اللغة الايطالية - (وكذلك ايضا في اللغة الفرنسية احيانا) على كل ما يبعث الاعجاب والروعة لاتقانه وكماله . فتكون الترجمة الصحيحة الكوميديا الرائعة او الممتازة لا الالهية كما ظن اول ناقليها الى العربية ، وقد تركناها كما سميت لحلول الخطأ الشائع المشهور محل الصحيح المهجور .
ويذكر هذا القول بقول ابي العلاء المعري :
وقدكان ارباب الفصاحة كلما
رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن (٤٢) .
والاستاذ ابراهيم المويلحي اول من اشار من العرب - فيحد علمنا - الى وصف دانتي ، بـ " الالهي " (بصيغة المذكر) لا الالهية ، (بصيغة المؤنث) - لكوميدياه . وهو ايضا اول من ذكر بالعربية في نشرة مطبوعة ما جاء في مقدمة ترجمة ارتو دو- مونتور الفرنسية (٤٣) بخصوص ظهور اول طبعة لكوميديا دانتي ،

في مدينة فولينيو عام ١٤٧٢ بعنوان " كوميديا دانتي اليغييري الفلورنسي "

وان طبعتها الرابعة والعشرين نشرت في مدينة البندقية عام ١٥١٢ بهذا العنوان : " دواوين الشاعر الرائع دانتي " وركز الاستاذ المويلحي على صفة " الهي " هنا مخلوعة على الشاعر دانتي نفسه بمعنى الروعة والامتياز ، واخيرا ، اي في عام ١٥١٦ ظهرت طبعتها التاسعة والعشرون وهي تحمل عنوانها النهائي :الكوميديا الالهية "
الذي اشتهرت به حتى يومنا هذا ٠

ونشر لا ٠ بومبياني (٤٤)، صورة لعنوان احدى طبعات الكوميديا الالهية يعود تاريخها الى عام ١٥٢٩ وقد جاء في مطلع العنوان المشار اليه :
كوميديا دانتي اليغييري الشاعر الالهي
ونعت شخص بـ (الالهي) ورد حتى على لسان دانتي نفسه الذي قال في وصفه هنري السابع اللوكسنبوري (٤٥):
" القيصر الالهي العظيم الحقيقي

وقد زينت ترجمة دو مونتور التي نشرت اول مرة عام ١٨١١- ١٨١٣ وثاني مرة عام ١٨٢٨- ١٨٣٠ برسوم طبعة البندقية عام ١٧٥٧ ، ومن تلك الرسوم ربما رسم دانتي في اول ترجمة دومنتور كتب تحته شيء يهم موضوعنا :
دانتي اليغييري الشاعر الالهي الذي ولد في فلورنسا عام ١٢٦٠ وتوفي عام ١٣٢١ وهذا الرسم لرفائيلو في الفاتيكان ٠

والاشارة الى ان رسم دانتي هذا في الفاتيكان وانه من صنع رفائيلو تفيد ان تاريخه يعود الى ما قبل وفاة هذا الرسام الشهير رفائيلو عام ١٥٢٠

والشيء الملاحظ ان جمهور كبار الكتاب العرب أجمعوا او كادوا يجمعون على تسمية ملحمة دانتي في العربية : الكوميديا الالهية ، ولذلك يكون من المستحسن الاقتداء بهم في اعتماد هذه التسمية ٠

—

بقلم : الياس سعد غالي

هوامش

١- لا ٠ بومبياني : معجم المؤلفات ج ٢ص ٥٩/١٩٥٢- ط٢/١٩٥٥ و ميلين بونان غاريك: دانتي ص ٨٢/١٩٧٠
- د ٠ حسام الخطيب : الادب الاوروبي تطوره ومذاهبه ص ٦٢/٩٧٢
٢ - فاضل كرومي : مجلة المسرة (لبنان) عدد ٥١٤/ ١٩٦٥ص ٢٧٣
٣ - الكسندر ماسورون : دليل الكوميديا الالهية : تراجيديا ص ١٨٦
والجحيم : النشيد ٢٠/١١٢ الحاشية ص ١٧٣
٤ - دانتي : الجحيم النشيد ١٦/ ١٢٨ - هذه الكوميديا
٢/٢١ - كوميدياي
٥ - دانتي : الفردوس النشيد ٢٣/٦٢ - القصيدة المقدسة
٢٥/١- ٩ القصيدة المقدسة
- كورسيوس : الادب الاوروبي والعصر الوسيط اللاتيني ص ٤٤٢/١٩٥٦
٦ - بول برودار : مقدمة ترجمة

ارتوردو منتور الفرنسية / ١٨١١—
١٨١٣ص و ١٨٢٨— ١٨٣٠ط ٢
٧ — — ارنست كورسيوس : الادب الاوروبي والعصر الوسيط اللاتيني ص ١٩٥٦/٤٤٢: نشرت منظومة دانتي في البندقية عام ١٥٥٥بعنوان : الكوميديا الالهية " وعرفت بهذا العنوان منذ هذا التاريخ.
— لا ٠ بومبياني : معجم المؤلفات ج ٢ ص ٥٩
٨ — ميلين بونان غاريك ٠دانتي ص ٨٩
— ارنست كورسيوس : الادب الاوروبي ص ٤٩٣ : بوكاس اول من وصف الكوميديا بالالهية
— مصطفى ال عيال : سلسلة اقرأ عدد ١٩٥٦/١٦٤ص ٨٣
— د ٠ حسام الخطيب : الادب الاوربي ص ١٩٧٢/٦٢
٩ — د ٠ مصطفى صالح : مجلة جيش الشعب الدمشقية عدد ١٩٦٩/٨٧٨
١٠— د ٠ مصطفى صالح : نشرة المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق م ٩٦٩/٢٢ و م ١٩٧٠/٢٣ص ٢٠٢رقم ١٦٥
١١— د ٠ مصطفى صالح : كشاف مصادر دراسة ابي العلاء رقم ١٦٩ص ١٩٧٨/١٥٢
١٢— د ٠ مصطفى صالح : كشاف مصادر دراسة ابي العلاء رقم ٧١٥ ص ٢٨٤
١٣— اوزانام كاتب فرنسي ١٨١٣ — ١٨٥٣له كتاب بعنوان : دانتي والفلسفة الكاثوليكية في القرن الثالث عشر (١٨٣٩وله كتاب : مصادر الكوميديا الالهية الشعرية)
١٤ — سليمان البستاني : مقدمة ترجمة الياذة هوميروس ج ١ص١٧٤ ، و ١٧٥

١٥— جرجي زيدان : مجلة الهلال السنة ١٥ عدد ١٩٠٧/٥ص ٢٧٩—٢٨٧
— تاريخ الاداب العربية عام١٩١٢ ج ٢ ص ٢٦٢

— رسالة الغفران طبعة الكيلاني الثانية ١٩٢٥ج ٣ ص ٧٢ و ٩٠
— مصطفى صالح : الكشاف ص ١٥٨رقم ١٨٨
١٦— كامل كيلاني : رسالة الغفران ط ٢ / ١٩٢٥ج ٣ ص٩٢
١٧— الياس غالي : رسالة الغفران والكوميديا الالهية في لمحات تاريخية (مخطوط ص ٧
١٨ — د ٠ طه حسين : تجديد ذكرى ابي العلاء ط ٢ / ١٩٢٢ص٤و ٢٣٩ ، قدمه الى الجامعة عام ١٩١٤ونوقش في ١٩١٤/٥/١٥وصدرت طبعتم الاولى في ١٩١٥/١٢/٢٤والثانية عام١٩٢٢، والثالثة عام ١٩٣٧
— رسالة الغفران طبعة الكيلاني الثانية ج ٣ ص ٤٥ و٧١ و ج١ص٩
— مصطفى صالح : كشاف ص ١٦٤رقم ٢١٨ الحاشية ١٣
١٩— د ٠ طه حسين : رسالةالغفران طبعةكامل كيلاني الثانية/١٩٢٥ص ٩
٢٠ — د ٠ طه حسين : تجديد ذكرى ابي العلاء ط ٢ ص ٢٣٩
— رسالة الغفران طبعة الكيلاني الثانية ج ٣ص ٤٥ و ٧١
٢١ — عبود أبو راشد : الرحلة الدانتية في الممالك الالهية " تعريب لاديفينا كوميديا
٢٢ — عبد العزيز اليمني الراجكوتي : ابو العلاء وما اليه
— رسالة الملائكة ص ٢
٢٣ — محمد كرد علي : رسالة الغفران ط ٢ ج ٣ص ٧٢ و ١٩٢٥/٩٠
— محمد كردعلي : المعاصرون ١٩٨٠ص ٣٤١
٢٤ — قسطاكي حمصي : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٢٧
منهل الوراد في علم الانتقاد ١٩٣٥ج ٣ ص ٢٣٨ و ١٨٥و ٢١٤و ٢١٥ و ٢٢٣ و ٢٢٤ و ٢٣١ و ٢٣٢و ٢٣٥ و ٢٣٧ و ٢٤٤

٢٥ – عبد الكريم اليافي : دراسات فنية في الادب العربي ١٩٧٢/ ص ٣٦٨
٢٦ – حسام الخطيب : الادب الاوربي ١٩٧٢ص ٦١ و ٦٢ و ٦٦
٢٧ – غناطيوس سعادة : التفاعل الحضاري بين المسيحية والاسلام في ابحاث اسين بلاسيوس ، مجلة المنارة العدد ١٩٨٤/٣ص ٥٥٥ و ٥٥٦
٢٨ – ناشد سيفين : المقتطف م٨١ عدد ٢ – ٣٢/٧/١ص ٢٠١ – ٢٠٥
– مصطفى صالح : كشاف رقم ٢٨٩
٢٩ – محمد بدران : ترجمة قصة الحضارة ج ١٤ ص ٣٥١ / ١٩٦٤
٣٠– امين ابو شعر : جحيم دانتي الاغنية الخالدة الالهية الكوميديا الالهية (٧/٤/)
٣١ – محمد مندور : الميزان – الجديد – ص ١١٨و ١٩٤٤/١١٩
٣٢ – كامل كيلاني . رسالة الغفران ط ٢ ج ١و ٢ و ٣ /١٩٢٥
٣٣ – عبد اللطيف الطيباوي : التصوف الاسلامي العربي ص ١١٠ – ١١٢– ١١٨و ١٢٥/ ١٩٢٨
٣٤– مصطفى ال عيال : سلسلة اقرأ– دانتي ٦٥و٨٣و٩٥و١٠٠و١٠٤و١٩٥٦/
٣٥– دريني خشبة : الرسالة عدد ١٥٧و ١٦٥/ ١٩٣٦
. – مصطفى صالح : كشاف ص ١٨٩رقم ١٩٧٨/٣٠٣
٣٦– عبد الرحمن صدقي : رسالة الغفران طبعة الكيلاني الثانية ج ٣ص ٥٨/ ١٩٢٥
٣٧– عمر فروخ : حكيم المعرة ص ١٩٤٤/٩٤
٣٨– بنت الشاطىء : الغفران ص : ٣٢٦و ٣١٩/ ١٩٥٤
٣٩– حسن عثمان : ترجمة الكوميديا الالهية في اجزائها الثلاثة ١٩٥٩– و ١٩٦٤و ١٩٦٩
٤٠– ابراهيم المويلحي : تراث الانسانية م ٥ عدد ١٩٦٧/٨ ص ٦٢٤و ٦٢٥
٤١– حسام الخطيب ، الادب الاوروبي ص ٦٢
٤٢– تراث الانسانية : م ٥ عدد ٨/ ١٩٦٧ص ٦٢٠ – ٦٣١
٤٣– ابو العلاء : سقط الزند (التنوير ص ٢٨٥ من قصيدته في رثاء ابيه
٤٤– مقدمة ترجمة الكوميديا الالهية لارتو دو منتور الفرنسية
٤٥– لا . بومبياني : معجم المؤلفات ج ٢ ص ٥٩ ط ٢ / ١٩٥٥
٤٦– لا . بومبياني : معجم المؤلفات ج ٣ص ١٩٢– دانتي : رسائله .

متمرّدة.. على جدارٍ مهترئ

محمد زهير الباشا

رؤية ادبية :
لرواية : لينا .. لوحة فتاة دمشقية

تأليف الدكتورة سمر العطار
(استراليا)

صمم الغلاف : الفنان الاستاذ ناظم الجعفري

قفزة في المستحيل ..

الفن ليس بحثا عن المتاعب فحسب، بل هو جذوة المتاعب ومعاناة للقلب .. لتصوير الاشواك المفتعلة في فُردوس الغد ..

وجاء الفن على يراع الدكتورة سمر العطار قلبا يرى وليس جفونا مخدرة .. تبنت الزمن ارتجاعا من عهد الوحدة بين سورية ومصر مسافة لم تتجاوز جيلين .. فبحثت عن احلامها واغرقتها الكوابيس وتخلصت منها بهذه القفزة في مستحيل الجرأة على قول المشاعر التي تفرض الحقيقة حرصا وحذرا ،فلم تشأ ان تحدد للمجتمع مناراته واضواءه وزخارفه ـ بل حددت وجوده على ضوء الواقع .. كما هو .. دون عجز او ملل .. فهذه القفزة في عالم المستحيل ربما تشير الى ان هناك اقتطاعا لكثير من اللوحات الدمشقية تركتها مخطوطة لينت للنشر وللبيان..

صراع القيم سبيل التحرك نحو الافضل .. انتقال الى الحلم ملاذ لكل قلم ـ حاصرته التقاليد الراهنة فتوزع المجتمع الى اقانيم، وتخلخلت الاجيال .. فتاهت الاوصاف لا للضياع فحسب بل للعودة الى مسار هو مفاسد ..

المعادلات خلال تلك الفترة .

القلم المتبحر في الغوص كشفا وتصويرا عن مزايا المجتمع ومكوناته في عملية غنية هي الريادة في ولوجها الصعب من الاحداث والشخصيات . هذا الصعب يتمثل برؤية ادعياء التمسك بالتقاليد وبأساليب الندب وحلقات متوارثة منذ عهود التفكك .

وخلال هذا الغوص في الصعب تجد المعتوه والمنجمة وقارئة الكف في البيئة البرجوازية ذات الستائر المخملية وروائح الاطعمة الغنية باللوز والفستق والصنوبر ، على مسمع طبلة يرقص عليها قرد .

ومنهج الرواية سار على السرد الذاتي :

معتمدا على اساس الوصف المباشر مرتكزا على الذكريات والاحلام والتطلع الى غد ..

فتتداخل فترة الطفولة بالواقع فتأسرك براءة لينا وحنان امها وتوقظ في النفس مشاعر المشاركة فاذا ما استمرت في حوارها جادلت وطرحت مفاهيمها على لسانها وعلى لسان ريما ثم على توجيهات الرفيقة امل ..
منهج الرواية لم يكن على وتيرة واحدة من اسباغ شرعية الفن عليه ..
كان فيه التداخل بين الماضي والحاضر، بين الجنة والماضي وبصفحة واحدة / ٢٣ / فالتقطت صور (شقائق النعمان وكعوب الاحذية الرقيقة ،وقضم اطراف اصابعها) وعلى (ثدييها نبتت حشائش بلون الليلك) / ١١٧ /
ومما اتبعته الروائية اسلوب سرد المذكرات اليومية / ٣٤٦ وما بعدها / كل ذلك ليكون الرصيد الفني ذا قيمة جمالية متكاملة ..

* وبكلمة واحدة - مفردة - تصور الحدث والشخصية ففي طيات الرواية (عفاف) احادية اللون والموقف والعمل .. وليس من السهل ان تتحرك امثال هذه الشخصية (احادية اللون) الا بصعوبة فأحكامها متهافتة متجلدة هائمة بالوشايات تتشفى من الاخرين (تهمة النسوة لابي امين) ..

فكشفت تصوير - الرصيد - حين كشفت - احادية اللون والموقف.. مما جعل آفاق التحرك محدود الجوانب ..
وسمحت الروائية لبطلتها - لينا - ان تجول وحدها غير مرتبطة بوحدة اللون او الحديث وانما وظفتها على حساب الزمن .. في طفولتها ومراهقتها ودراستها الجامعية ..

وما تعداد التعامل في الشخصية البرجوازية الا وفق التعامل بالمرايا المقعرة في وضع انتهازي وصولي غير مبرمج لاي غد مجد او متفاعل .. فالهروب من ازمة اجتماعية الى ازمة يتمثل في هذا النحو المثير من المدنية الى الريف .. فكان ملاذ النفس التواقة للجوء على ارض - من الطبيعة الصافية - بلا مجتمع او صراع متواثب .. لكن الانسان الاحادي - السلوك لم يختلف اذ لا بد للبطلة لينا من ان تلتقي (برشا، دون ان تنسى البائع على الرصيف : ابا امين)

* * *

* والخيال في هذا الرصيد الفني كان غنيا له القدرة على التفوق والتحرك بحرية ، فيطوف ويحتج ويرود حتى يصل بها الى نهر العسل والحليب (وابو هاشم بثوب طويل اخضر ٤٦)وهي الطفلة التي تفزع من اي شبح قادم من المقبرة. ليت البطلة استمرت بابداعها فأعطت الادب وضعا صوفيا لما استغنى اهل الصوفية عن الم الواقع وتلذذوا بهذا الوجد المتسامي .. خاصة وقدتمثل لها الله / ٤٦ / فالاشعاع - (الفني - الخيالي) انساب قدرته بلغته ودهاليزه وهبوطه مع السؤال على واقع (لعب الاطفال) وعلى تاريخ البرامكة (وكأنها تشاهدها ٨٧) وعلى قصص الف ليلة وليلة التي كانت تروي على لسانها لا على لسان (رشا) .

* في هذا الرصيد الفني من خيالها تنفس المتعبين من جور المتعاملين بصلف ونفاق فكان سمة نفسية لاضافة لكونه سمة جمالية (٢٩٨) فانطلق خيالها وهو يتكيء على التداعي بالاقتران الزماني او الاقتران المكاني (٣١٣) (٣٤٢) ، فظل يتجول بحيوية ويتحرك فيأسرك بلغته وتفاجأ بأنها اوجزت الكثير فلم تترك للخيال - انطلاقه - الدائم بل حصرت وفق التداعيات - وكأن هناك صور اخيالية احتفظت بها البطلة لنفسها ..

* ويهمس لها الخيال فيحدثها بالاصوات الغريبة من(فم ابريق الشاي وهو يبقبق) وترسم الدهالير فأختها (بهية تركض خلفها وتصيح كالضبعة ٢٠٦) / ٣٢٩

* وتذكرها اساطير الف ليلة وليلة بذلك (الحشاش الذي يدعو : اسألك يا الله ان تغضب سيدتي على زوجها و ان اجامعها ٢١٧) وينبثق خيالها من تلك الكلمة -المفردة وحدها فتتهادى صورة الخبز المرقوق وتقضم اطراف الخبز المحمص (العلاقة بين رشا وامينة).

* فأروع الصور تبدأ وتضع على صفحة الذكريات بعض نقاطها ثم تختزن وتترك، للرواية ان تسير باتجاه مرسوم ، دون المزيد من العبث اللاهي .. وتختزل تلك الصور التخييلية بتلوين لا يشبع النهم من هذه الاوصاف ..

* والتجأت احلامها الى نوع من الكوابيس الحالمة ، فقد جسدت المطلق وصورته وخافت من الموت وعاشت البطلة اوهامه وتعلقت بكوابيس الف ليلة وليلة / ٦٣ / ثم انتقلت الى الام فرتر لشاعر المانيا - غوته - وكأن تلك الالام تنفيس ومهرب من هذه الضغوط الاجتماعية فكان الحلم - كابوسا - هو الاداة الاولى

للاتصال فيما لا يمكن الوصول اليه ..وهو البعد عما يزعج ويضني .. فالصبر على المكاره لا يعطي راحة ان لم يرافقه تبرير عقلي او تصوير بالحلم وباللفظة ، فكان الحلم وسيطا مبدعا حمل معه الافكار والمعلومات واسرار الذات بشكل فني متعدد .. فهو ليس قالبا من الرموز بحاجة الى تأويل ساحر وتفسير منجم .. انه اشارة للمعاني باللغة والكلام (قطع الفطر ، رؤوس تتناطح ، لحس شفتيه بارتباك ، يبصبص على الغسيل سراويل النساء ، برم شاربيه / ٨ /)

* * *

* والحوار .. ايضا ..

ارتباط الحوار بالحادثة والشخصية كان ارتباطا وثيقا بأسلوب فني فهو الاداة التي مثلت الشخصية العادية و .. حوار هو المسؤولية لدى الشخصية الاحادية والمتلونة والانتهازية .. جاء بألفاظ فصيحة ، واحيانا بتركيب عامي غير ركيك او ضعيف .. فالحوار بتكثيفه وبالتعامل معه على هذا الاساس اتسم بامكانية الفهم ونقل وتوثيق ما بداخل المتحاورين..

وحوار الابطال والشخصيات [illegible] رواية الدكتورة كشف عن فيض مشـ[illegible]ـرهم بغض النظر عما يوافق الهدف او يتصارع معه ، ففيه فيض من اللاشعور على حدود الذات او في منطلقات اللاوعي ..

* انه الحوار ذو الجذور التي لم تجنح الى الرمز الا في حالة اللجوء الى الحلم الكابوس .. بل جعلته بتلوين وتشويق قادر على استيعاب الحدث فكان شديد التعبير او لينة او متهاديا معه ، وفق نوعية الشخصية المتحاورة .

* الحوار .. عينان متعلقتان بالحدث وبأصحابه مردودا على سرد ذاتي بقدر خصب الموقف .. فهو الذي صور مشاكل وألوان وامزجة الناس في هذا المجتمع المحصور زمنيا دون البحث عن مصائر اولئك المتحاورين ..

بعبارات مقتضبة او حادة او لينة بمسايرة التصويب والتسديد .. فهي مستقاة من الناس صاحبتهم ، او رافقتهم فعرفت افكارهم واختارت مايتلاءم والتخاطب الموجز .

* وفارس احلامها ..

وجه الفارس كان يلاحق لينا من نصف عام وجهه البريء اوصلها خيالها الى (فرتر وغوته) يرقب حركتها في اشد الاوقات زمن الريح وفي قيظ الصيف واعتبرته (روميو) المتشوق الى اعادة الرضا .. والتذت بوحشيته ثم سابقت الريح واستبد بها الخوف والجنون فهربت /٢٤٧/ اما بقية الاوصاف ـ عن فارس الاحلام فظلت غائمة سابحة في اعماق ذاتها.. فهو مجرد حلم وصبوة .. ايكة عشق ، وملجأ تهرب اليه وتتذكر نظراته بوجهه الشاحب (وفي يده شبابة صغيرة ، وملأت انفاسها ، رائحة قميصه النظيف مختلطة بعطر زهر النارنج، امسك يدها ثم افلتها واقترب منها . وقرأت في عينيه الرماديتين حكايا طفولية .. ثم آحست بشبحه يلاحقها

وسمعت ضحكاته الخافتة (١٠١)

وعاد اليها وجه الصبي يثير فيها الشهوة ومتاعبها وهي تتقلب بين الحب والكره واحلامها مدينة تهدم جسورها / ٣٠٧ /

(وأسدل الستار وضجت القاعة بالتصفيق) فالبطلة لينا مثلت دور ديدمونة (باردة باردة يا حبيبتي ـ قال عطيل وكأنه يغني ٣٠٩) .

*و[illegible] الحلم واليقظة وعلى دفتر يومياتها رأت الصبي متوسلا وهو تغني وامام روحه العارية شرعت تفحص افكاره ، لقد احبته بصمت غبر ضباب الزمن (وسمعته يقول لها بلهجة المستبد : انت حلوة .. ثم تتوهج عيناه كالحريق) ٢٨٢

ولم تستسلم للحب وهي تواقة (الى الحرية .. ولم تجد اي تناقض بين الحرية والحب ٢٨٢) .

وحلمت وحلمت على الامل ونافذة الفضاء (اذا انشقت السماء وخرج منها صبي صغير .. اشقر الشعر ،مورد الخدين ثم سمعته يقول انا الضائع ٢٨٩) .

* وفي عينيه الاحلام .. يقطع الزمن بالبحث عما يعتلج بالنفس .. فتجمع بآن، قصة ديك الجن الحمصي (وقتله للحبيبة) وعطيل وقتله (لديدمونة) ..

فتبقى لينا قتيلة الهوى تتعذب ومن (بعيد لمعت اضواء البيوت الرابضة على سفح الجبل ٣٣٥ / وقراءة رشا حكاية (الحشاش مع حريم الاكابر ٢١٦) .

* ونسجت كلها بلغة غنية خصبة .. فهي الاداة الطيعة التي سردت واوضحت بخفة وسهولة معدن الحالات النفسية والطبيعية وصفا وتصويرا للحياة بمنهج روائي يتنامى مع الاحداث مع اضافات الزمن الى عمر لينا .

الرصيد الفني في منهج الرواية ..

الاكتمال الفني درب عسير تمشي عليه خطوات اي فنان يبغي الكمال - المطلق - والسمة الفنية في الرواية تبدو من خلال الروية الفنية للبناء الهندسي الذي تطرحه مواقف الشخصيات وافكارهم وصراعاتهم ضمن اطر من حياة التكامل الفني نجده صفاء وتقنية متوازنة في رواية (جذور الفرح القادم للروائي احمد سنبل) حيث ينمو البناء مع الحدث بمنظور الفن الواعي من حيث توظيف المشكلات الهادفة الى تحقيق الفرح الموعود ..

ونجد التكامل الفني في رواية العرس للاديب حسن قياسي كتبها (من ارض المهجر - استراليا) قد اعتمد على الزخم في توالي الاحداث ، وعلى الاحتراق المضني لكل التقاليد العقيمة التي كانت تتحكم بالريف في نهاية عهد العثمانيين..

* اما التكامل الفني في رواية الدكتورة سمر العطار،
فنعثر عليه متماسك الجوانب دون اي هبوط - جزئي - او غير جزئي . في مستوى توالي احداث الرواية ، رغم مشاعر التلهف لمتابعة الغوص في افكارها يلاقي الكثير من الاقتضاب في الحدث . . بل انهناك (جزئيات او مقاطع) قد ابعدت عن الرواية ..

* رصيدها الفني في مزج مترابط بين الواقع الاجتماعي والواقع المادي والواقع الفني .. فالاحداث الاجتماعية رافقتها نفوس متصارعة تشابكت معها فعقدت المحتوى بدون البحث عن اي حل لاي فكر عقائدي او لاي استسلام امام ضربات الزمن والتي سجلت بألسنة الطبقة البرجوازية : قضاء الله ..وامام النقائص في اعماق هذه النفوس تجرد من اي نزاهة موضوعية وبرزت الفردية - اللامحدودة - والذاتية الضيقة النظر .

* المجتمع بترابطه الهش بين هذه الوقائع : الذاتية والنفسية والاجتماعية ينبض باكثر من قلب ويتحرك بكل الصور ويصعد فنا حين يصور باقتضاب فلايستطيع نهما ولا يروي قلبا .. وفي منطق (هشام والعمة رشا وامل) مثل يحتذى لهذا التصارع فلكل منطقه ومشكلته وعدم شعوره بالمسوولية فتضيق عليهم فكرة تبادل الرأي ويتذمرون من اي حوار وكأن المجتمع - قدر ثابت بتقاليده واطعمته وملابسه واوامره ونواهيه .. وليس الحياة بأبعادها - لعبة حوار غير مثمرة وانما هي صور متجددة تبصرفيها عذاب اهل الفن ، وهموم اصحاب المروءات، ومعاناة دعاة التجديد والتطور ولن تبقى لعبة التقاليد وتمجيد الفكر متمسكة بخناق التطور .

* فظواهر المجتمع صورته المؤلفة وهي تمعن النظر بالواقع - المادي - الاجتماعي وتتطلع الى افق الغد لعل على تلك المظاهر تستنبت اشكالا جديدة يحصدها اطفال الغد .. فلما فحصت فيما حولها من امور وسلوك ومعاملات اصطدمت بهذا الطود من العبثية ، ثم بحثت عن (حلول) وليس عن (حل واحد) فدونت احلامها وكوابيسها وفارس غدها .. وعرفت علل هذه (الامور والسلوك والمعاملات) ، انها تشد هذا المجتمع الى المراوحة على ارض ثابتة واستدلت على وسائل الخلاص ..لكن الشفاء من هذه (المفاسد الروحية والاخلاقية والسلوكية) ليس صعبا لكنه مستحيل مستحيل .. فراحت تدقق في ثنايا التعامل اللاانساني (ابو امين والمعتوه و ..) .

* في رصيدها الفني ادانة تامة للمتربعين في الطبقة البرجوازية المخملية ،وادانة مع المستمسكات للمتصارعين تحت تأثير الفكر العقائدي وادانة مع التقزز (الشاب الجزائري وصاحبة الفرو ..)

اما الحكم على هذه التصرفات بمجموعها فهو الصدق بتصويرها وانه النبض المتفجر بل هو البغض والتقزز لمثل هذه الاحداث اللاانسانية .. ورغم ما نلمسه من حكم استطاع ان يضم لنفسه رصيدا من الفن فلا ننسى انها لم تكن بموقف القاضي تبحث عن قرار الحكم ، فمعها من الوثائق والذكريات مايدين مجتمعات عديدة لالوحة - موجزة - عن دمشق خلال فترة جيلين تنتهي بعهد الوحدة .

ومن مميزات حكمها انها ركزت على دقة الوثائق المستقاة من حياتها ومشاهداتها فكشفت عن الشيطان في ارواح هؤلاء الاقربين (ما عدا امها وريما وامل وسميرة والمعتوه وابو امين) .

كما اكدت عن نزعات هذا الشيطان في رغباته ونزواته وغرائزه وانفعالاته فنطقت شخصياتها بقلوبها وعلى اسطر الرواية كان حوارها ومواقفها واهدافها المتصارعة .. مماكون للروائية المزيد من الرصيد الفني في السعي نحو الاكتمال الفني .

مجتمع منكوب بأفراده ..

لينا .. نموذج الفتاة المتفتحة والهادئة ، والملتزمة بخط ايديولوجي لكنها الهاربة من كل قفص وان كان زمرد القضبان .. المتمردة على كل موجة هاربة من حياة ملتصقة بنوع من التردي، وهناك الشخصيات المتمسكة بأهداب التزمت واذا ما بدأنا بهذه التوضيحات فاننا نعثر على الخلية الاولى في المجتمع الا وهي اسرة لينا ولكل فرد سبيله الخلقي ، فأمها حافظت على الحداد فكان وجهها يتصلب وتطالب (دعونا من السياسة) وعفاف اختها تتحدث مع الناطور وصهرها هشام يدخن التنباك الامريكي وهو (مثل حي) للانتهازية .. كزوجته عفاف التي سرقت (شمعدان ابيها الفضي) يوم دفنه ..

ويطول الحديث لو استمر عن عمتها سامية ، وهي تلف سيكارتها بعدم اكتراث ، والتي تجابه ريما بكل عنف وهي تقدر جوقة النادبات وتعتقد بأن (بذور الزيتون اذا ما اصدرت صوتا ما في الوجاق فان اي حامل في الاسرة ستضع صبيا ٢٢) فلها نفسية الحرباء والعقرب معا .

ومع هذه الاسرة في المدينة تتلاقى القرابة في الزبداني / رشيا شيطانة قرأت سرا حكاية الف ليلة وليلة على وضعها وراحتها بطبعة قديمة ..

وفي الشارع مجتمع اخر يتحرك فيه رجال الاذكار والادعية ،واما ابو امين فهو المثل الاعلى عند لينا.. وهو الذي يضم المعتوه ويحنو عليه والمجتمع المدرسي والجامعي يفرز صراعا تشترك فيه لينا مع (امل ماضي) في لقاء بحضور ريما وعشرين عضوا ..
لكن لينا لم تستجب لما التزمت به مع امل .. التي قررت ان لينا غير صالحة للعمل معهم .. فتختار الهروب ..

وعلى نحو موجز وردت اسماء هذه النماذج التي كونت شخصيات الروية فصورت ملامحهم وتركت للقارىء ان يتمم مابدأت به المؤلفة .. فالتساؤل يبدو (فيم غابت ريما ذات الفكر العقائدي - الشرقي) ..
وما هي تجاربها ومحاوراتها .. المختصر الذي ورد في المجابهة مع صهرها هشام ومع عمتها سامية غير كافي لمن يود الابحار في هذه المجابهة ..

* *

وعلى يراع المؤلفة انساب الزمن هادئا وهادرا ونمت شخصية لينا وتأزم الصراع في هذه البوّر (الاسرة والشارع، المدرسة الثانوية والجامعة ، ولم تجد لينا زمنا تحتضن فيه فارس احلامها .. فالرياح عبر السنوات تجرف معها الوان العيون ، وتسرق من الافكار قيمها وتلوح في الحوار برجوازية الستائر والثريات وانطوائية لينا وحذرها.. موضحة ان عدم التناسق وفقدان الترابط يخنق هذا المجتمع ويكتفه ..

وانما يتفاهم على تزييف اعماله ، وخذلان اقاربه ، وبروز انانية اعضائه ، ويصل الى استعصاء ثم انحلال وانهيار روحي في كل وظائفه الفكرية والادبية والعلمية..

فمن واقع الشخصيات عبر السنوات تتحدث الروائية عن طفولة لينا ومراهقتها وانها ملحقة بقصص شهرزاد .. وتبقى الرجولة انتهازية والشيخوخة هروب الى السماء .. وعلى الارض قهر وأحزان .. شخصياتها اسيرة هذه الابعاد مهما اتسعت تبقى محدودة واحتمالات الخلاص من(العناء الاخلاقي) غير وارد في مجتمع لا يعترف ان العلم يفتح العقول ويجدد الروح وانه يتجاوز ازمانه بكل قدراته من اجل الابداع والانطلاق وتأكيد حقيقة الانتماء.

وظاهرة التفكك متوفرة في هذه البوّر (الاسنة والشارع ..) فهي ظاهرة استنبتتها قيمة المنع .. ومنع القيمة فكان التدهور الاخلاقي بلا وزن ولا ضبط ..

فكيف استطاعت الروائية ان تدفع النبض الى شرايين اهل الكهف ..؟

كان الدفع اليه مغامرة وايقاظ اهله مغامرة ..

فقتلت (الفتاة) نفسها وانتحرت بتقاليدها .. واخذت مع اسرارها ..وبصقت عمليات(الكبت) مستبدة بها فانطوت ثم هربت .. وبرز تمردها حلما مرا ، كابوسا رهيبا .. حبيبا يلاحقها على فرس الوهم .. وتمردت على احلامها ايضا وهي في المحاجر باقية ..

واستسلمت الشخصيات للتجارب فنبضت بالحيوية المركزة على كل سطر سجل اريجا او عفنا ، غضبا او استفزاز مشاعر ، حقدا او دما على وجه شباب ركلته الاحذية ..

جسدت هذه الرواية مشكلة اجتماعية خلال فترة الخمسينات ومطلع الستينات من هذا القرن .. واندفعت تروي عن كل شخصية قصتها وتخاطبها من عالم الواقع

والذات والاخلاق الى عالم العلاقات بنفسية متمردة واطلالة جلية وغربة مؤقت اوصال الذات دليلا على انهيار العلاقات .. وهذا دليل شدة قربها من هموم مجتمعها فتركزت هذه الهموم في ارض الغربة ، استراليا ، لتكون عطاء ادبيا سكب جماله في رواية لينا .. فهي وثيقة عصرها لما تضمنت من مقاصد ونزعات . وهي مرجع بلا اسرار او رموز .. تدعوك الى ان تتملى النفس من صورها ..

* حددت الزمن بأسلوب فني .. لا كما يكتبه اهل التاريخ واليوميات .

* رسمت مواضع التحرك في بيئة اجتماعية هي - المدينة - وبيئة ريفية

* وحركت الاصوات لتخدم اغراضها بالكشف عن مشاعر هذه البيئة وتلك .. بلا تزييف ولا تزمت ولا تحامل .

* كان احساسها نقيا غلبت عليه صيغة المعاناة والخوف والانطواء فلو غضبت .. فان غضبها لا يحمل السخط او الحقد او التجني ..

فلديها ذاكرة تسهب وتوجز .. ومخيلة تهيم بالصور والالوان الطبيعية وتزخرف .. وان ارتمت بهوى الكابوس وبفارسها فهي تحلق مع فارس احلامها بارادة فتاة طيبة مصممة على ان تبدع في كل سطر فكان لها ما ارادت رواية سارت على منهج الصدق في المشاعر والوعي بأحوال المجتمع .. فقد كتبت (بدم القلب .. ولم تكتب بالحبر) كما قال جبران .. وصاغت ازمة المثقفين من الطبقة البرجوازية والملتزمة ومنحتها الحياة والحركة واستقلالية الرأي ..

ونسقت الاحداث بترتيب زمني يتفتح وينمو مع لينا .. فكان لها النقاء في سكب مشاعرها في اطار فني تضمن الحياة الاجتماعية والمادية والصراع الايديولوجي فجاءت روايتها بلا افتعال ولا مقدمات فأثبتت جدارة الكلمة بين يديها واستمدت ذلك من تجاربها ومن مشكلاتها الذاتية .. فاصطبغت ملامح الشخصيات المادية والنفسية والاجتماعية بتحليل غير مباشر لكل الانفعالات .

وتنوعت شخصياتها من بسيطة الى معقدة .. ومنها الملتزمة بسرد الذكريات لتبقى رئيسية في كل خطوات الرواية .. ومنها ما يثبت على انتهازية ونما مع الزمن الاغبر ..

فمن الداخل رسمت اجواء الرواية ومن اعماق الشخصيات كشفت حقائق النفس البشرية ونوازعها وطمعها .. فحللت وصورت ووازنت المعادن من النفوس .

لكن الخط الايديولوجي من ريما الى امل .. يظل ملقيا وشاحه على آفاق الاحداث ويبدو وكأنه متواصل الحلقات ..

لكن لينا تتمرد من جديد على جميع - الخطوط والمشارب - لتعود الى ذاتها منطوية متفردة صافية الاديم .. لتمثل دور الفكر العربي بعودة الانسان العربي الى ذاته وقيمه الاصيلة ومنابت العراقة بتعامله الانساني وابداعه الحضاري ..

* انسياح وتدهور متسارع (خلال الفترة المحددة كما ورد)

في مجتمع تفسخت علاقاته ،فبات غير قادر على حماية ذاته ، وغير متمكن من حفظ وجوده امام الزمن وصراعاته .. فكان ان رسمته الروائية مجتمعا غير واع لمفهوم الاسهام بالحضارة ، .. او المشاركة فيها ، او توجيهها اوتحولها لتكون انسانية النسغ والهدف ..

صورته مجتمعا وسوقا رائجة لكل التيارات والنزعات والنزاعات .. فاختطف بريق الايديولوجية الشرقية .. او غاص في بوتقة التقاليد او اضاع نفسه بالصراع الايديولوجي ..

فمن يعمل للوطن قدسيته ومستقبله ؟

ومن يغسل العقول فندمر بايدينا وبعقولنا ، بسابق اصرار وعنجهية وكأن - الخطر الاسرائيلي - مرسوم قدرا على يدي المستوطنين ..؟

المجتمع انساح وتدهور ..

انقسم وتمزق ..

فمنذ ان رصدت الروائية هذا الانحدار ابتدأته من الصفحات الاولى بالاسرة وأبانت انقسامها ، في المدينة والريف واوضحت مشكلات الارصفة ومسالك روادها وباعتها وصعاليكها .. فالشارع مجتمع ذو قيم وحدود ..ولم تنس المجتمع (المدرسي والجامعي) وقضاياه المتأزمة بين استاذ يشد الطالبات الى ارائه وطالبات تشدهن الى مآرب جديدة .. وفي الجامعة تبدو صورة التمزق الاجتماعي على دقة والوان صارخة ..

* وبثبات اقتحمت هذه - العلاقات الاجتماعية المتردية ..

وتحدث دون خشية اوحذر محور هذه العلاقات فالظلم الاجتماعي لا يرحل عن اكتاف الابرياء .. الكبير يتحكم ويستعلي والمسابح الطويلة بأيدي نسوة غريبات يندبن فرحيل الميت لا يتعادل مع المأثور الانتهازي (من يتروج امي يصير عمي)

الذي الغى حرية الانسان ووجوده ومحا الوانه .. فكيف لا ينساح هذا المجتمع الى مستنقعات الافناء الذاتي .. بيديه وبمشاعر غير مسؤولة ..

من الهزال الى المحال :

* راقبت مجريات الاحداث فسجلتها في ذاكرتها فجمعت ووعت وقدرت ..
* داهمت المألوف من مظاهر الحياة .. فترك في اعماقها تناقضا واستغرابا فحفظت وتناست .. ولكنها ما نسيت وما تشفت ..
* استبقت الوقائع بحدس شفاف فتألمت وعاشت كوابيسها ، فتأرهت وتوجعت وانطوت ..

دفعتها الوقائع الى التوق المتعنت من اجل معرفة الحقيقة ، والى اشواق تاهت .. وعلى الامال الهاربة من العيون غفت ..

* المتداول من الادوات في هذه البينات وسيلة للنفي تراكمت وعلى الاثبات انتقضت وتأزمت .

فكانت عملية متراخية الاوصال . .

* فراحت الروائية تتلمس المجردات ولا تغيب عنها المحسوسات .. تسيقظ على حروفها تخييلات وكوابيس مصورة وفيض وراء الصورة والحدث والحوار ..
* لم تعثر على الشط المتوازن تجاه تشابك العادات المستحكمة . . ولعل المتعويذة تنوس من زمن الهزال الى زمن المحال ..
* والمحرمات فراغ من قلق وارتماء في اغتراب التيه المتمكن في الاشياء الناطقة ببواطنها .. فابحث في هذه الرواية عن مناخ هو عصارة - دم الانسان - وقد كان اضاءة على لوح مستنير في ذاكرة مجتمع ينسى لحظة عطشة ..
* لهذا كله اوبعض من جزء :

ابحر وجدان الروائية وتوثب يراعها وهي ترجع الزمن رؤية مرة وخطفا مرة فتماسك التنظير الفني فيما يمكن ان يكون على سعة في الطول انه الوجود المتعسر .. والمنشود المتعثر ..

محور وهدف :

حاولت الروائية ان تستجمع في المجريات الذهنية كل التفصيلات فحققت ذلك بالصور المستمدة من الواقع ، او المأخوذة من الاخلاق المتفسخة ، او من الولوج في الذات وحوارها ، او من الذاكرة الخصبة التي احتفظت بالجزئيات .. او من الكابوس - الحلم ملجأ وملاذا .

* وقد رأت الحاضر متفسخا بعلاقاته في المدينة وفي ما روته رشا ابنة الريف من حكايا مستقاة من قصص الف ليلة ولية - نسخة غير مشذبة وغير مهذبة ..

وكانت البطلة لينا منفردة بذاتها لخصت محور الرواية ص / ٢٥٠ / /٢٥١ / (كانت طفولتها ميتة ، بل ربما ضائعة كانت حياتها منتظمة بالرغم من التمرد كانت تريد ان تتحلل من كل شيء .. ان تنسى كلما تعلمته على الفضيلة والرذيلة .

ومهما فعلت .. فقد ظلت كالراهب في صميمها جدية ، مملة ، ولها فلسفتها الاخلاقية) .

* وانه الحاضر بوقائعه الاجتماعية النفسية المتردي في علاقاته .

ويبقى اصحاب المواهب والمشاعر يتطلعون الى غد متطور متجدد وهم يلامسون بقلوبهم عذابهم ويكابدون بمشاعرهم وحدهم هزال الفكر والروح .. ويرون ان استمرار التضارع بين قيود التقاليد والانطلاق نحو عالم القرن العشرين يحتاج الى كثير من محاسبة الذات ومن دراسة واعية للتخبط الذي يعيشه المجتمع ..

* والهدف يمكن ان يقرأ في ص ٢٩٢ . (كيف يمكن ان يبني المرء وطنا قبل ان تبني انسانة ؟)

رواية لينا ..

* تجرح .. مكامن الاسرار .. وبصدق الرؤيا تداريك فتجرحك ثانية ..وتصاب بالادمان .. تخفيفا ولوعة ..
* تأسف النفس ان تعثر على مشهد يؤكد لك ان دمشق مستعصية على التطور (كما قال منظر فرنسي) .. ولا تقتنع بهذا التأكيد .. لكن الرواية شاهد عدل على فترة من الخمسينات انتهاء بعهد الوحدة بين سورية ومصر .
* تندم .. على مرور ربع قرن من حياة اقدم مدينة في العالم وهي متجمدة لا تسهم في حركة التقنية والابداع الحضاري الا بمظاهر زلئفة ..

* تشارك ابطال الرواية بابعادهم العاطفية .. بلمساتهم الانسانية ، بمضريتهم وقد بلغت حدود الشمس اوتقطر دما ..

* نتمنى مع لينا ان قد خطوت وانهيت انتشار العفن من المستنقع .. فتثور معها وتسخط على ما عثرت وتعثرت وتمردت .. فأنت واحد من هذا المجموع في حالتي التفرد والتعصب المشترك .. لكن هذا الفرد تائه من اجل انتمائه لهذا المجتمع .. والمجتمع يشعرك بوجوده هو بترادفاعضائه .. وتماسك تقاليده واعرافه .. واما الانسان فهو بحالة الانزواء والانطواء والتمرد على الذات اولا .. وعلى المجتمع ثانيا ..مما يضطر الانسان الى قراءة جديدة للرواية مثنى وثلاث فتعود اليكالجراح والاسف والندم بغضبة مضربة .. رغم الهدوء الظاهر بالالوان التي رسمتها ريشة الفنان الكبير الاستاذ ناظم الجعفري فكانت احدى الزوايا الشعبية في دمشق القديمة ..

ودمشق منذ السبعينات والثمانينات رسمت وجودها التقدمي بتطلعاتها الحضارية وبمواقف رجالاتها وبصمود اجيالها ..

محمد زهير الباشا

مستقبل البشرية

لورن إيسلي

* البروفيسور ل . ايسلي عالم انثروبولوجي لامع ، وقد القى الكلمة التي ننشرهنا ملخصا امينا لها عام ١٩٦١ ، عندما نال جائزة مؤسسة بيار لوكونت دونوي الامريكية ، وهذه الجائزة تمنح كل عامين لمؤلف " عمل استثنائي يشدد على الحياة الروحية لعصرنا وعلى الدفاع عن الكرامة الانسانية " .

في عصر الشك والقلق الذي نعيش فيه ، يعاين عالم انثروبولوجي قدير التاريخ الطويل والمؤلم للانسان ، ويعلن ايمانه بمصيرنا .

في منتصف سياق الحياة ،
أضعت الطريق الحق ،
وتهت في غابة مظلمة .

هكذا تبدأ كوميديا دانتي الالهية . وبوسع الانسان ، ذلك الحاج الابدي ، ان يقول ذلك اليوم ايضا ، لانه صادف ، على طريق تطوره ، ما يفزعه .. صادف شبحه الذي ظهر له بغتة من العتمة .

منذ مدة ، بعد ان نشرت مقاله حول التاريخ المغرق في القدم للحياة على كوكبنا ، تلقيت رسالة من احد القراء ، لقد قلبت تصوره عن الزمن ، فألقى علي هذا السؤال : هل كنت موجودا وقتها ، ايها الظريف ؟ ..

ايه أنعم ، فكرت متنهدا وأنا أقرأ رسالته ، لقد كنت موجودا ، ربما مختلفا قليلا ، وكذلك أنت ، يا صديقي ، بوجه قد لا تتعرفه اليوم ، انه ماض يمكن ان يقرأ في قلب الصخور ، وفي مقدور الفيزيائيين الذين يدرسون النشاط الاشعاعي ان يقيسوا مدته ، الحياة مرتبطة بالتاريخ ، وخيط الاستمرارية الوراثية يعود مرورا بالرئيسات ، الطيور والاسماك الى برك ماء يغلي خلفها انحسار المد على وجه كوكب لم يكن بعد قد تزيا بالاشجار والاعشاب الحية . هذا التاريخ مدون حتى في عظامنا وملح دمائنا مصدره بحر يضيع في ليل الازمنة ، هكذا يواصل الماضي حياته بيننا .

لم احس مراسلي بهذا الفزع لان كثيرين ممن يقبلون بنظرية التطور كثيرا ما يهتمون بارتكاب ما يمكن ان يدعى "غلطة الحيوان" عندما ننظر الى الهيكل العظمي لاجدادنا ، يضاعف الخوف المتنامي الذي يثيره فينا التقدم العلمي من قلقنا ، فنقرأ في الجبهة الواطئة والاسلحة الفظة للانسان البدائي قسوة متعمدة ووحشية .

نحن واقفون على نقطة معطاة من سلم الزمن الجيولوجي . ونعلن ، كما قال موّخرا كاتب موهوب ، ان الانسان الاحفور ليس مد فونا في كهف كلسي انما في قلوبنا . ويضيف هذا الكاتب انه اذا كان الانسان كائنا استثنائيا اذا كانت روحه قد خلقت خصيصا واذا كان مستقبله يتحدد بطيبته ، نبله وحكمته المتأصلة فيه ،

لست هنا بصدد مناقشة ما يكون الطبيعة الارضية للانسان : سألفت الانتباه فقط الى انه ابتداء من اللحظة التي نتساءل فيها عن طبيعتنا (لاننا كائنات ذكية ، حساسة ، وقادرون على دراسة انفسنا) تبدأ هذه الطبيعة بالتطور على نحو غير محسوس ** " ان التاريخ الطبيعي للانسان كما يقول امرسون ، لم يكتب ابدا ، لكن كل مايقال عن الانسان يتم تجاوزه على نحو دائم

لقد احتفظ جسدنا ، وليس لأي عالم ان ينكر ذلك ، من تركيب تشريحي قديم يعود الى الازمنة البدائية ، على عناصر تلاءمت بصورة حاذقة مع غايات جديدة ، ان تعقيدات الحياة وقدراتها المنظمة التي لم تفسر بعد مذهلة لم أننا فكرنا في ان سمعنا يتم بواسطة عظيمات يعود اصلها الى ما كان يشكل فكنا الزاحفي ذات يوم ، وبالمثل ، ليس لاي عالم ان ينكر ان المخ البشري هو ثمرة تطور طويل عومل خلاله بقسوة شديدة ويقوم الخطأ على الاعتقاد بأن الزمن يتوقف ، على التفكير بأنه اذا اتكل الانسان على الطيبة والنبل والحكمة فهو ضائع لامحالة ماذا نمت فينا حقا هذه المرحلة الضئيلة من رحلة الحج الانسانية ان لم يكن الطيبة ، النبل والحكمة ؟ ..

لئن كان الانسان هو دكتور جيكل الطيب ، فهو كذلك مستر هايد الشرير . كان الشراب السحري الذي كان يتعاطاه بطل قصة ستيفنسون يفصل بين العنصرين المتناوئين للشخصية الانسانية ويمد مستر هايد بقدرة مطلقة ، من الممكن ايضا الفصل بين جيكل وهايد بواسطة علاجات عصرنا الايديولوجية الرهيبة ، لقد شهدنا ذلك في المانيا الوطنية ـ الاشتراكية .

لكن ثم حدث هام اخر ايضا بوسعنا ان نشهده : هذا النبل الذي طالما احتقر ، هذه الطيبة التي يسخر منها قادا البشر الى تحمل اسوأ التعذيبات والى موت شنيع من اجل ان تبقى الطيبة ، من اجل ان يحترم النبل ومن اجل ان تكون لصورة عن انفسنا مدونة بحروف من نار على ظلماتنا الجوانية اهمية اكبر من اهمية الحياة نفسها .

ان جريان الزمن ظاهرة خلاقة غنية بالوعود والامكانيات . فالحياة تبث في المادة ضربا من مستقبل لا يمكن التنبؤ فيه ، وفي هذا تكمن معجزتنا جميعا ، نحن الذين خرجوا من ليل الازمنة ، نحن نحتمل جيلنا لاننا لا ننتمي الى الماضي فحسب بل الى المستقبل ايضا . لهذا (واعتبر هذا الموقف بندا من بنود معتقدي العلمي) ، لا اقبل على نفسي ان اسجل الانسان في الاطار المطلق للماضي ، حتى وان كان هذا الماضي يحوي روائع وعظمة مثلما يحوي عارا .

الانسان يحتوي دوما الى المستقبل بصورة جزئية . انه يمتلك القدرة على تجاوز هذه الطبيعة التي يعرفها . منذ

زمان بعيد ، انطلقت مخلوقات
مزودة بعصي وحجارة في الرحلة
التي قادتها الينا ، ولو لم تكن
لديها شرارة صغيرة من الشرف
والمحبة ، مهما كانت ضآلتها ، لما
كنا هنا اليوم ، فلنلتقط من جديد
هذه الشرارة بدلا من ان نجمع
الاسلحة التي حلت اليوم محل
حجارة اجدادنا ، ولننطلق الى
الامام مثل المسيحي في " رحلة
الحاج " لجون بانيان .

لو كنا نعرف تأويلها بصورة
صحيحة ، لكان التقليد الكبير
للرحلة نحو مدينة الله التي
نصادفها عند كل خطوة في آدبنا
كله يشكل لوحة فسيفساء اكثر غنى
وتنوعا فيما لو نظرنا اليها
ضمن اطار التاريخ البديع لتيار
الحياة العظيم الذي يجري ويتفرع
ويتلوى في اشكال قبيحة حينا ،
وجميلة حينا اخر ، لكنها دوما
متنوعة ، ان توقا واحدا م[illegible]ه
القلب ، كما كتب بانيان ، من
شأنه ان يرتفع بالانسان الى الله ،
الاف من البشر امثاله سيتكالبون
عليه لمنعه ، وستذهب جهوده ادراج
الرياح ، لكن في غياب هذا
التوق ، سيكون كل شيء مثل المطر
على الحجر ، اذا لم نكن نؤمن
بهذه الرحلة ، فهذا يكفي لقولنا
اليوم ان الرحلة انتهت ، سيلحق
بنا الشبح الذي يتبعنا ويصبح
شبحنا الخاص ، هكذا اذن ، مع
انني من انصار التطور ومنشغل
بالماضي ، فأنا اومن بالمستقبل ،
حتى في المستحاثات المكسوة
بالكلس التي نتوهم انها تهددنا
بوسعنا ان نقرأ المستقبل بقدر ما
نقرأ الماضي . ان الايمان هو الذي
يسمح للرحلة ان تستمر . هذا
الايمان وهذه الرحلة ليسا
خارجين عن انفسنا ، انهما
يتحققان في قلوبنا .

لست اقبل على نفسي
يتملكني الفزع لاننا وجدنا انفسنا
في منتصف طريقنا ، امام انفسنا
في غابة مظلمة ، ارفض الاقرار
بأن الرحلة انتهت ، او بأن الحيوان
هو الذي سينتصر في النهاية
اعتقد اننا يجب ان ننطلق الى
الامام ، حتى لو كنا نرى قننا
الليل الذي لا وجه له بين الاوراق
المتساقطة تحت شمس اخيرة قارسة
لقد خرجنا من ليل اشد عمقا
بكثير ، ليل حضرنا لهذه الرحلة ،
شكل ارواحنا لهذه الغاية واعطانا
عصا الحاج وجعبة سفره .

اذا كان صحيا اننا شبح
امام بابنا ، فقد وصلنا الى
اشد مفارق الطرق التي تتردد
امامنا البشر في تطويرهم هولاء ،
ومع ذلك ، هل [illegible] ان ننتظر شيئا
اخر ؟ لقد وجدت قبلنا [illegible] ارواح
متوحدة على عتبة هذا الباب نفسه
وهذا الشبح نفسه تراجع من امامهم

الى الذين يبحثون عن حلول
نهائية ، ليس لي ان اقدم الا هذه
المقولة التي قرأتها منذ ايام ،
وانا احقق سيرة حياة احد كويكرز
القرن الثامن عشر ، جون وولمان .
لقد تمتم وهو على فراش الموت :
أومن بالله ، عن الحياة والموت
لا اعرف شيئا "

اما انا فاومن بالله كلما
مات انسان ليؤدي شهادة لحياة
آتية .. اومن بالله كلما امنت
بأن الانسان وضع ، من حيث لا يدري
اسس تكهنات رائعة للتطور الاتي
الذي لا يستطيع الا قلة من البشر
لانهم نادرون جدا ، ان يستشفوا
قدرته وامكانياته .

لقد قيل عني بأني ساذج
لاني لا زلت متمسكا برجائي في
الانسان . لن اجيب الا بانه ، في

الظلال المخيفة لفجر الانسان ، لا شك في ان المخلوق البدائي الذي بدأ مترددا يتهجى الكلمات التي تشير الى الرأفة والمحبة ، اثار، هو ايضا ، قهقهات صاخبة خول نار مشتعلة ، ومع ذلك فهنالك من استمع لأن هاتان الكلمات وصلتا الينا •

* * منذ قرن كان ينظر الى الانسان اولا كملاحظ يسيط ، ثم بعد داروين ، كغصين بسيط للتطور ، الا انه الان يبدأ في ادراك ان الساق الرئيسية لشجرة الحياة الارضية قربه ، الحياة لا تخضع في تمايزها للمصادفة ، وفي كل اتجاه ، لكنها تسمح لنا برؤية اتجاه مطلق للسير نحو قيم وعي متنام ، و ، على هذا المحور الاساسي، يكون الانسان هو الحذ الاكثر تقدما الذي نعرفه •

منذ غاليلي، كان من الممكن ان يبدو أن الانسان فقد كل موقع متميز في الكون • ها هو ذا ، تحت التأثير المتزايد للقوى المتضامنة للاختراع والمشاركة ، يعاود تبوأ الصدارة : ليس بعد الان في الثبات ، لكن في الحركة ، ليس بوصفه مركزا ، لكن على شكل سهم العالم المتنامي •

بيار تيار دوشاردان – رؤيا الماضي